مجلّة

المجمع الجزائري للّغة العربية

مجلة لغوية علمية محكمة تصدر عن المجمع الجزائري للغة العربية

العدد الخامس عشر السنة الثامنة شعبان 1433 هـ جوان 2012 م

مجلة المجمع الجزائري للغة العربية

العدد 15 السنة الثامنة : شعبان 1433 هـ جوان 2012 م

بسم الله الرحمن الرحيم

مجلة المجمع الجزائري للغة العربية

مجلة لغوية علمية مُحكمة يصدرها المجمع الجزائري للغة العربية

المدير المسؤول

د. عبد الرحمن الحاج صالح

رئيس التحرير

عثمان شبوب

اللجنة العلمية

د. محمد صاري

د. أحمد حساني — **د. التواتي بن التواتي**

د. بشير إبرير — **د. عبد الجليل مرتاض**

عنوان المراسلة : 06 شارع العقيد بوقرة – الأبيار – الجزائر

البريد الالكتروني : aala@wissal.dz

هاتف : 213 021.23.07.90 الفاكس : 213 021.23.07.81

* المقالات التي ترد إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أو لم تنشر

* كل باحث مسؤول عن آرائه

محتويات العدد

1 – الثُّنائية اللغوية بالنسبة للغة العربية وأوصافها الحقيقية: الإيجابية منها والسلبية.

أ.د. عبد الرحمن الحاج صالح **9**

2 – في توليد المفردات بالحاسوب

أ.د. موفق دعبول/أ. مروان البواب..... **29**

3 – المنصـــور بن أبي عامر في شعرابن دراج القسطلي

د. عبد القادر هني و شابحة حمرون..... **45**

4 –ظاهرة التذكير والتأنيث في العامية الجزائرية وعلاقتها بالفصحى

الدكتور عبد الكريم عوفي..... **99**

5 – المنحى التعليلي في قياس يونس بن حبيب

د.خالد بوزياني..... **125**

6 – تأصيل عوارض التركيب النحوي

د. حنـــفي بن أحمد بدوي علي **143**

7 –تعليم الوحدات الصرفية في اللغة العربية دراسة نقدية على ضوء مفاهيم المدرسة الخليلية الحديثة

أ. حميدي بن يوسف..... **185**

8 – تعليم النحو العربي بين غايتي: حفظ اللسان وفهم مقاصد الكلام

الأستاذ محمد ولد دالي..... **203**

الثُّنائية اللغوية بالنسبة للغة العربية وأوصافها الحقيقية: الإيجابية منها والسلبية *

للأستاذ الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح

إن الثنائية اللغوية هو اصطلاح حديث العهد يطلق على ظاهرة لغوية اجتماعية وهي استعمال لغتيْن: اللغة الأصلية ولغة ثانية (ويقابله في الإنكليزية كلمة (Bilingualism). ولهذه الظاهرة ارتباط وثيق بهوية الفئات من الناس الذين يوصفون بذلك وبتاريخ الدولة التي ينتمون إليها وعلاقاتها بغيرها من الدول الاستعمارية. وقد تكاثر في عصرنا الذين يلجأون إلى استعمال لغة أخرى غير لغتهم الأصلية في الكثير من حاجاتهم. وتشاهد هذه الظاهرة في جميع البلدان التي تسمى الآن بالنامية ومنها البلدان العربية وهي قليلة جدا في البلدان الكثيرة الإنتاج العلمي باستثناء الأقليات التي تعيش فيها كالناطقين بالاسبانية في الولايات المتحدة والأفارقة والأسيويين القاطنين في أوربا.

ولهذا لا نستطيع أن نتعرض لهذه الظاهرة وخاصة في البلدان العربية بعد وصفها **دون أن نبحث عن الأسباب الحقيقية التي أدّت الآلاف من المثقفين العرب إلى استعمال الإنكليزية أو الفرنسية بدلا من العربية**

(*) ألقي هذا البحث في مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة بتاريخ مارس 2012.

في مناسبات خاصة بل حتى في الحياة اليومية في بعض المجتمعات أو بعض الجهات في الوطن العربي. وقد يرى بعض الناس أن هذا سببه عجز من اللغة العربية أو قُصور مُذنب من أصحابها وليس الأمر كذلك. هذا وماذا عسانا أن نستفيد من الوصف المجرّد لهذه الظاهرة الخطيرة (ونبدي تأسفنا الشديد) إذا لم نتساءل عن الأسباب وإذا لم نربطها بظواهر أخرى لها علاقة قوية بالأولى وبالسلوك اليومي عامة.

فالذي سنتطرق إليه هو أولا النظر في مفهوم الثنائية وانتشارها وذلك بالنسبة لاستبداد اللغة الأجنبية في بعض الميادين وثانيا النظر في الأسباب التي أدّت إلى هذه الحالة والنظر أخيرًا في تطور هذا الوضع والوسائل والتدابير الكفيلة بالنهوض بلغتنا.

إن ما أصاب اللغة العربية من ضعف في منافستها لبعض اللغات الأجنبية حتى في عقر دارها ليس هو أمرًا غريبا بل لهذا التقهقر والتدهور اللغوي أسباب، كما قلنا، وظروف **وليست** في الحقيقة **مجرّد أزمة** يمكن أن تنفرج بالتدخل الملائم. فقد ترتب على تفوق بعض البلدان الغربية علميا وتكنولوجيا على غيرها **تفوق اللغات التي ينطق بها أصحابها** في الميادين العلمية والثقافية عامة حتى اضطرت الأمم الأخرى و منهم الغربيون من غير الناطقين بالإنكليزية أو الفرنسية أن تتعلم إحدى اللغتين و لاسيما الأولى منها للاطلاع على ما يجدّ من جديد عند أصحابها في الميدان العلمي. ورغب الناس في تعلم اللغـــات الأجنبية المتفوقة واشتدت حاجتهم إلى ذلك وخاصة عند تطور أجهزة الاتصـــال والإعلام

وانتشارها السريع والشامل. وانتشرت حينئذ الثنائية اللغوية وكان لها جانب مفيد وجانب سلبي سيئ.

I- الثنائية اللغوية في البلدان العربية

إن الثنائية اللغوية في الوطن العربي تتفق فيها البلدان العربية في بعض جوانبها وتختلف اختلافا كبيرا بين دولة وأخرى ومن ميدان إلى آخر. وذلك كالإدارة في دواليب الدولة في المشرق والمغرب. وكالقطاع الاقتصادي والتجاري خاصة وكقطاعي الإعلام والإشهار المكتوب والمسموع والمرئي وقطاع التكوين والتعليم.

ونتعجب ممن يذكر الثنائية اللغوية وحدها كظاهرة اجتماعية في العالم الثالث والعربي خاصة ولا يذكر معها ظاهرة أخرى وهو الاكتفاء باستعمال اللغة الأجنبية وحدها في بعض القطاعات. **فغياب اللغة العربية في هذه القطاعات هو أخطر بكثير** وقد تكون الثنائية التي تكون فيها العربية على حدّ سواء مع اللغة الأجنبية في الزمان الذي نعيش فيه شيئا إيجابيا في اكتساب المعارف الجديدة.

أما فئات الشعب المختلفة ففي جميع البلدان العربية لا تستعمل هذه الفئات إلا لغة واحدة في جميع معاملاتهم وحياتهم العامة وهي العربية باستثناء بعض المواطنين الذين ينطقون بلغة زيادة على العربية وهي الأمازيغية والكردية ولغات أخرى مختلفة وهي لغات إسلامية وهي ثنائية حقيقية سبب وجودها غير الثنائية الناتجة عن التفوق الغربي. وتوجد ثنائية

ورثها الناس من الاحتلال الاستعماري السكاني بصفة خاصة في بعض البلدان كالجزائر والمغرب العربي عامة في عدد من القطاعات وذلك مثل ما هو موجود في الإدارة لبعض الوزارات.

فالثنائية التي تنحصر في الحديث العادي أو في تحرير الإدارة للوثائق باللغتين وغير ذلك من أنواع الثنائيات فهي لا تأتي بشئ مفيد ولا تقوم بوظيفة معينة يكون لها نهاية بتحصيل الغرض بل هي ثنائية متطفلة جدّ مضرة لأنها بتطفلها على اللغة الوطنية تسهم في تقلص مكانتها وقد تتغلب عليها. وهذا من أخطر ما تكون عليها اللغة الوطنية.

وقد يسمي بعضهم ثنائية ما يضيفه المواطن المثقف إلى استعماله للعربية استعماله للانكليزية في الجامعة وفي ذلك شئ من التسامح لأن الطالب في الجامعة لا يدرس العلوم الآن إلا باللغة الأجنبية فإن كان يعرف اللغتين –مبدئيا– فإن تعلمه للعلوم ليس فيه أية ثنائية. وهكذا هو الأمر بالنسبة لمن يدرس في المدارس الخاصة الأجنبية فليس هناك ثنائية أبدا بما أن كل الاختصاصات تدرس باللغة الأجنبية فالعبرة تكون باستعمال لغتين في نفس الميدان أو نفس النشاط المهني لإتقان الأفراد للغتين فقط.

ثم إن استعمال اللغتين في نفس الميدان هو شئ موجود في جميع البلدان العربية وقد يكثر في قطاع دون آخر ومن بلد إلى آخر. والذي يجمعها هو أن المثقفين الذين يتقنون اللغة الأجنبية إتقانا هم الذين درسوا في المدارس الخاصة الابتدائية أو الثانوية أو المدارس الأجنبية الموجودة في الوطن العربي دراسة كاملة وتعوّدهم على استعمال اللغة الأجنبية يؤديهم إلى التخاطب

بها من غير حاجة ماسة إلى ذلك وهذه هي أيضا ثنائية وتؤدي في بعض الجهات إلى اختلاط اللغتين في التخاطب العادي. وهذه الأخيرة هي أسوأ الثنائيات. وعلى الرغم من عموم الاستعمال للعربية في المستوى ما قبل الجامعي فلم تزُلْ هذه الثنائية السلبية عند بعض المثقفين بكيفية نهائية. وقد يُشاهد مثل هذا في بعض من درس في المدارس الأجنبية في سائر البلدان العربية. ولا يمكن أن يمتنع تماما من استعمال اللغة الأجنبية من يعيش في وسط مكثف من مزدوجي اللغة.

أما الأسباب التي تدعّم الثنائية السلبية غير المفيدة فليست لها علاقة بالثنائية هي في نفسها والاستمرار فيها. فأهمها هو **غياب اللغة العربية من التعليم العالي** للعلوم ومن البحث العلمي الطلائعي **وغيابها كلغة تعليم في المدارس الخاصة** وبالتالي استبداد اللغة الأجنبية بهذا التعليم وهذا البحث وسيادتها فيها سيادة كاملة فهذا هو التدهور الحقيقي.

لقد قلنا بأن المجتمعات الغربيـــة الأصلية كالأمريكيين الأصليين وكذلك البريطانيون لا يلجأون **في حياتهم اليومية** إلى استعمال لغـــة أخرى غير لغتهم الأصلية إلا نادرًا. ومن الملاحظ أن بعض الفئات من البلدان الغربية الأخرى مثل المهندسين والعلميين عامة قد يضطرون إلى استعمال الإنكليزية في ممارسة حرفتهم. وهذه هي نفس الظروف التي تجعل العرب وغيرهم من البلدان النامية يضطرون إلى استعمال اللغة الإنكليزية أو الفرنسية في الكثير من الظروف مع الكثير من التنوع والاختلاف .

II- أسباب ضعف العربية

إن اللغة العربية في زماننا هذا هي لغة تتميز عن غيرها ببعض المميزات منها أن أغلب أصحابها مروا بفترتين سيئتين جدا: الأولى هي عصر الجمود الفكري الذي غمر العرب لعدة قرون بعدم التجدّد في التفكير وعدم الإبداع تماما في الميدان العلمي وبالبقاء لا على ما قاله المبدعون من العصر الأول لظهور الإسلام بل **على ما قاله المتأخرون**. فرددته الأجيال من العلماء بدون أي تطوير إلى يومنا هذا. أما الفترة الثانية فهي عصر التسلط الاستعماري الشرس الذي حاول الغرب فيه القضاء على الكيان العربي الإسلامي بتجهيل الشعوب وإفقارها ثم تلاه عصر العولمة. **فاللغة هي مرآة للحالة الاجتماعية التي يكون عليها الناطقون بها**. فتوقُّف الإبداع الفكري يتراءى في اللغة كما تتراءى فيها حالتهم الاجتماعية المتصفة بالركون فتصير مترلتها بذلك عند الأمم الأخرى مترلة ضعف شديد. **وهو سبب نفور بعض الناطقين بها أنفسهم** عن استعمالها في ميادين التعامل مع العلوم والتقنيات والثقافة العالمية عامة.

اللغة مثل العُملة قيمتها في قيمة ما تنقله و بقاؤها ببقاء قيامها بهذا فاللغة التي لا تنقل المعلومات الطلائعية ذات **القيمة الموضوعية في سوق التبادل العلمي والتكنولوجي تصير غير مطلوبة عند الجميع**. وهذا ما يجعل أكثر الناطقين بها يلجأون إلى اللغات التي تقوم بهذه المهمة بفضل ما يُنتجه وما يبدعه أصحابها. فيترتب على ذلك تسلط اللغة الأجنبية ذات النفوذ على النشاط الفكري وبالتالي ميل السلطات إلى فرض التعليم للعلوم في الجامعات بالإنكليزية أو الفرنسية.

إن الكثير من المواطنين العرب يدعون إلى تعريب التعليم العالي بكامله بحجة أن كل دولة تحترم نفسها لا تدرس العلوم في مستوى الجامعة إلا بلغتها ولا يمكن أن يكون التعليم ناجعا إلا «بلغة الأم». وهو رأي صادر من مواطنين مخلصين. إلا أن التعليم الذي لا يرافقه الإبداع من **أصحابه أنفسهم** فلا يكون إلا عالة على من يصنعون العلم مهما بلغت سُمعة الحضارة التي صنعها أسلافهم فيما مضي. فالاستقلال النسبي للغات والاستغناء الجزئي عن غيرها لا يتحقق إلا في البلدان التي تنتج العلم وتبدع فيه وتخترع وتكتشف. أما بالنسبة إلى الكثير من الأمم التي لا يصدر منها هذا الإبداع فهي في حاجة أن تترجم ما يُنشر من المعارف الجديدة والنظريات الحديثة في جميع ميادين المعرفة. فأما ما تحتاج إلى ترجمته فيعد بآلاف المقالات العلمية تنشر في كل عام زيادة على المئات من الكتب العلمية القيمة. والتأخر المهول في الترجمة العلمية يؤدي إلى التأخر العلمي والثقافي **وهو الميزة الأساسية في الوقت الراهن للعرب** (فاليونان هم وحدهم يترجمون اليوم من ذلك الأضعاف المضاعفة مما يترجمه كل العرب) و قد وجدت في المشرق العربي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي نهضة حقيقية في ترجمة العلوم ثم توقفت في القرن العشرين.

فالضعف الذي تمتاز به العربية في منافسة غيرها ليس هو أزمة مؤقتة، كما قلنا، بل هي وضعية اجتماعية ورثناها من الماضي القريب ومن الركون الذي عشنا فيه منذ قرون. وأهم ما تتصف به هذه الوضعية

هو ضعف المستوى الثقـــافي والعلمي لكل الفئات المثقفة باستثناء عدد ضئيل جدا من النوابغ والضعف الشامل لكل تكوين مهما كان إلا ما شذ عن ذلك. والتدني المستمر لهذا المستوى منذ عشرات السنين على الرغم من حصول أكثر البلدان العربية على استقلالها بل وعلى الرغم من إبقاء التعليم للعلوم باللغة الإنكليزية أو الفرنسية. والضعف شامل لكل البلدان العربية إلى غاية الآن ولا نجرؤ على الحكم بذلك فيما يخص المستقبل القريب لأن ما نشاهده من الازدهار الاقتصادي لبعض الدول النامية قد يساعد أيما مساعدة على الارتقاء الثقافي بلا شك ثم إن هذا التدني هو أخطر في تعليم اللغة العربية (واللغات الأجنبية منذ عهد قريب!) وهذا يكوّن حلقة مفرغة لأن الضعف في اكتساب المهارة في اللغات يكون سببا في تدني التعليم لسائر المواد.

أما هذه الوضعية الاجتماعية التي لها أسباب تاريخية **فاللغة بريئة** منها لأن أصحابها هم الذين تأخروا علميا وتكنولوجيا وعسكريا عن غيرهم فتبعتهم اللغة التي ينطقون بها. وهذا ينفي ما زعموه من أن العربية غير قادرة على التعبير العلمي المعاصر. **إذ ليس من لغة في الدنيا** يكون لها كتابة **إلا وهي قادرة على التعبير العلمي** إذا ما ارتقى أصحابها أيا كانت ومهما كانت وضعيتها الاجتماعية فقوة اللغة ونفوذها لا تكمن في ثروتها من حيث المصطلحات العلمية والتقنية بل فيما تنقله من معلومات جديدة يتسابق الناس إلى الحصول عليها. فوجود المصطلحات فيها ناتج عن هذا لا العكس. وأكبر دليل على ذلك هو أننا ننقل –كمفاهيم– المصطلحات

التي يضعها الغربيون ولا نضع فيما يخص العلوم أي مصطلح و نعني بذلك أي مفهوم . ومن يضع من العرب مصطلحا يشيع فهو باللغة الأجنبية وهو صادر ممن اندمج منهم في المجتمع الأوروبي أو الأمريكي لأن تفوق الفرد العربي في العلم في زماننا **هو في الغالب** تفوق الفرد الذي يعيش في هذا المجتمع.

ولهذا نعود ونقول بأن الوضع الذي هو عليه اللغة العربية في زماننا ليس هو مجرد أزمة .

III- الثنائية اللغوية الوظيفية في نقل العلوم ضرورة مؤقّتة لا مفرّ منها الآن

إ ن غياب اللغة العربية تماما من التكوين والتعليم العلمي خاصة هو أخطر من الثنائية السلبية التي أشرنا إليها (ويمكن أن نتسامح مع الجزئية منها ما دامت لا تشوه الهوية العربية).

فالتدهور الذي أصابنا كعرب ليس في الثنائية في ذاتها بل في تقهقر مكانة العربية منذ أن نهضت أوروبا وانزوى العرب وأكثر من هذا منذ أن مُنعت العربية من أن تستعمل في أهم ميدان وهو العلم والتكنولوجيا فصارت لغة أجنبية في كليات الطب والعلوم ولغة ثانية تعلم كلغة فقط في المدارس الخاصة.

وهذا يحتاج إلى توضيح وبيان: إننا لا نعارض التعليم باللغة الأجنبية للعلوم الإستراتيجية إنما الذي نعارضه وننتقد من يفرضه أو يحبّذه هو

التعليم باللغة الأجنبية وحدها لجميع المواد وغياب اللغة العربية في عقر دارها في التعليم أو في غير التعليم أحيانا كثيرة .

فإخراج اللغة العربية من كليات الطب وكليات العلوم أو التكنولوجيا والمعاهد العلمية العليا لا يبرّره شئ أبدًا حتى تقدم اللغات الأجنبية في نقلها للعلوم. فإذا كان الأمر كذلك فلماذا لا نعطي للعربية فرصة لكي تُسهم في نقل العلوم مثل اللغات الأجنبية؟ فنحن لا نعارض أبدا وجود هذه اللغات النقالة للعلوم في كليات العلوم والطب وقد أصبحت بالفعل المنبع الوحيد الآن للعلوم بل الذي نعارضه هو إبعادنا للعربية بكيفية مطلقة من المكانة التي يجعلها لغة علوم وهو استعمالها في هذا الميدان الحاسم و لو بالنقل من أصحابها في البداية.

ثم إن إدخال الثنائية في التعليم العالي (في تعليم العلوم) والبحث العلمي هو ضرورة مُلحة في زماننا هذا إذ لا يمكن أن نستغني عن استعمال اللغات التي تنقل العلوم في الوقت الراهن كما لا يمكن ولا يُعقل أن نُعدم العربية إعداما بإبعادها ظلما وإجحافا عن المكان اللائق بها.

ولابد ههنا من ملاحظة مهمة جدا:

إن **استعمال اللغة الفعلي** بأي كيفية وأي ميدان كان هو الوسيلة الوحيدة:

أولا: لحصول الناطق بها على الملكة اللغوية الكافية في استخدامها من جهة.

ثانيا: لتكيّف اللغة وتطورها بالزمان الذي نعيش فيه واستجابتها لما يتطلبه العصر من جهة أخرى.

أما فيما يخص النقطة الأولى:

فالتعليم للغة الذي لا يرافقه أي استعمال لا في تعليم المواد الأخرى ولا في خارج المدرسة هو تعليم لا يفضي أبدا إلى المستوى من المهارة الكافية في اللغة. وهذا ما نشاهده في تعليم اللغات الأجنبية من النقص الفظيع للتلاميذ من حيث معرفتهم العملية للانكليزية والفرنسية. ولذلك يجب أن تخصص نصف سنة دراسية بعد الحصول على البكالوريا للتدريب اللغوي بطريقة قريبة من «الانغماس» الكامل من جهة ويُحوّل جزء كبير من حصة اللغة الأجنبية في الثانوي إلى مادة علمية ويأتي ذلك في مكان الدراسة للأدب أو الحضارة الأجنبية أو جزء كبير من ذلك.

أما ما يخص النقطة الثانية فقد بينا أن انزواء اللغة وإبعادها من الاستعمال في الميادين الإستراتيجية خاصة يسبّب توقف تكيفها وتطورها مع متطلبات العصر. وبالتالي تصير لغة غير مرغوب فيها حتى عند أصحابها وحتى في الحياة العادية أحيانا.

واللجوء إلى الثنائية في التحصيل على العلوم هو ضرورة يفرضها العصر إلى أجل مسمى وللضرورة أحكام.

IV- التدابير الكفيلة بجعل العربية مطلوبة من الجميع

إن المبدأ العام الذي ينبغي أن تخضع له كل الدول العربية وكل المجتمعات الناطقة بالعربية هو: **ألا تغيب العربية من أي مكان وأي ميدان إطلاقا** من جهة **وربط اللغة العربية من جهة أخرى بالعلم**

والتكنولوجيا فلا نهوض للغة إلا بهذا الربط. كما هو الحال في عصرنا هذا: فكل ما نأخذه من الغرب الآن يبقى التعرف عليه واستثماره باللغة الأجنبية عند عامة الناس في مختلف الفئات والميادين. هذا فيما يخص المسميّات الحديثة. أما الأفكار العلمية والتقنية بل والصناعية والتجارية فقد يفضل التعبير عنها والحديث عنها باللغة الأجنبية. وكل هذا مصدره غياب اللغة العربية من الأماكن الخاصة بكسب المعارف والأماكن الخاصة بالإعلام وبالإشهار. فقد شاع الآن التعليق الإشهاري باللغة الأجنبية في كل البلدان العربية.

ونقترح فيما يلي ما نعتقد أنه سيساعد على النهوض باللغة العربية وإزالة الثنائية السلبية بالتالي:

1) ضرورة اللجوء إلى الثنائية اللغوية في تعليم العلوم والتكنولوجيا في المستوى العالي وتعميم ذلك في كل ما يتجاوز التعليم الثانوي في كل البلدان العربية ولابد من إجراء تشاور واسع النطاق في مستوى إطارات التعليم العالي (وأشهر الأساتذة في مهارة التعليم) لاختيار المواد التي ستدرس بالعربية أو اللغة الأجنبية ويكون ذلك على أساس وجود العدد الكافي من الأساتذة الأكفاء والمراجع بالعربية ويمكن أن يلجأ إلى أكبر الأساتذة الأجانب و المتغربين من العرب من أصحاب النظريات العلمية لإلقاء محاضرات لمدة كافية في كل سنة باللغة الأجنبية لتطوير المعارف العلمية باستمرار. وباللجوء إلى التبادل الكثيف مع الجامعات الأجنبية.

1 - يُنشأ في كل جامعة وكل مركز بحوث **مركز للترجمة العلمية** وذلك في إطار مشروع الذخيرة العربية (وقد تقرر ذلك في الجزائر) لترجمة البحوث الهامة التي تصدر في المجلات العلمية العالمية وكذلك الكتب الجامعية القيمة. ويقوم بإقرار الترجمة لهذه المراجع مجلس علمي في كل دولة بعد اقتراح كل مؤسسة علمية في كل بلد و يمكن أن يشرف على ذلك مجلس علمي قومي.

ويجتمع وزراء التعليم العالي والبحث العلمي العرب مرة في كل سنة لمتابعة هذه الأعمال واتخاذ التدابير اللازمة لتطويرها وتحسينها.

2) ضرورة النهوض باللغة العربية بدعم تعليمها فيما قبل التعليم العالي وكذلك الانكليزية والفرنسية. ونقترح لذلك:

1 – القيام ببحث علمي تطبيقي لمضاعفة مردود طرائق التعليم للغات (في علم تعليم اللغات المقارن) وتعميم الاستفادة بالنتائج (انظر النقطة 6 فيمايلي).

2 – تكثيف دروس العربية والانكليزية أو الفرنسية والتشدد المعقول في طلب المستوى المناسب.

3 – تخصيص النصف من برنامج تعليم الانكليزية أو الفرنسية للغة العلمية بالتنسيق مع برنامج العلوم الذي يعلم بالعربية.

ويُرجى ههنا أيضا أن يجتمع وزراء التربية العرب مرة في السنة للتخطيط واتخاذ التدابير اللازمة لتنفيذ هذا المقترح وبالتنسيق مع التعليم العالي.

3) **مصادقة كل دولة عربية على مشروع الذخيرة العربية** ونظامها الأساسي وقد صار مؤسسة تابعة لجامعة الدول العربية أُنشئت منذ زمان قريب. والمشروع يرمي إلى إنشاء انترنت عربي (مثل جوجل الأمريكي إلا أنه علمي وثقافي وتراثي). وذلك لدعم التعليم العادي والبحث العلمي وبالتالي **لرفع المستوى العلمي والثقافي للمواطن العربي باللغة العربية** أيا كان سنه وأيا كان مستواه. والمستقبل ،كما هو معروف، هو لهذا النوع من الاتصال الجماهيري **المتفاعل** العظيم المفعول.

4) **ضرورة اللجوء أيضا إلى الثنائية اللغوية في المدارس الخاصة** والامتناع من أن تكون العربية فيها لغة ثانوية تعلم كلغة فقط وتختار بين اللغات الأخرى بل يجب أن تكون لغة تعليم على الأقل لمادتين علميتين. ويفرض ذلك على جميع المدارس حتى التابعة للدول الغربية ما دام فيها تلاميذ عرب بكثرة. ولا يتساهل في ذلك مهما كان لأن شبابنا إذا كان تكوينه كله بلغة أجنبية صار بالضرورة يتكلم ويكتب بلغة تكوينه ليل نهار ويتهاون بلغته ويصير بذلك من غير أهلها.

فالمبدأ ههنا هو أن يمنع منعا باتا كل تكوين ابتدائي وثانوي يكون كله بلغة أجنبية إذ العبرة بالتعليم المبكّر في تكوين الهوية الوطنية.

5) **تعميم وجود المعاهد الخاصة بتكوين المعلمين** وذلك بإنشاء لمعهد واحد في كل مقاطعة عربية تتجاوز عددا من السكان. وقد يجهل من ليس من الميدان التربوي أهمية الدور العظيم الذي تلعبه المؤسسة الخاصة بهذا التكوين. وأكبر كارثة يصاب بها الوطن هو الاكتفاء بالبكالوريا

كشرط لممارسة مهنة المعلم. ونلاحظ أن ما يسمى بالمعهد التربوي في بعض البلدان ليس هو الذي نقصده لأن المقصود ههنا ليس التخصص في علوم التربية بل الاكتساب النظري والتطبيقي لمهارة التعليم لمختلف المواد التي تعلم في المدارس الابتدائية.

6) **ضرورة البحث العلمي التطبيقي** في اللغة العربية وتعليمها بفتح معاهد خاصة لذلك ومنح الماجستير في هذا الميدان. وقد تقدمت البحوث في تعليم الانكليزية والفرنسية إلى حدّ بعيد جدا بربطه بتطور اللسانيات التطبيقية. فلابد من مراعاة ذلك والنظر المعمق فيما تحصل العلماء فيه. ولابد من تعميم المقترح الرابع والخامس على جميع الدول وإثارة هذين الموضوعين في الاجتماع السنوي للوزراء المعنيين بالأمر الذي اقترحناه سابقا.

7) **فرض وجود اللغة العربية بكل ما هو إشهار** مع قبول الثنائية إذا كان المنتوج والمقصود إشهاره من إنتاج الغربيين. ولا يتسامح في ذلك فلا يكون أي إشهار باللغة الأجنبية وحدها ولا بالعامية.

8) **إحياء التخاطب العفوي بالفصحى المنطوقة** فهذه العربية هي التي كان ينطق بها يوميا العرب قبل أن تتحوّل لغة التخاطب إلى عاميات محلية. فالعاميات لم تقمْ مقام اللغة العربية التي تعلم في المدارس كما هو معروف بل قامت مقام العربية المنطوقة الفصحى التي أصابها التغيير على ممر الزمان ولأسباب تاريخية اجتماعية.

فهذه الفصحى بما أنها منطوقة (لغة تخاطب) فإنها تتصف بالخفة التي يتطلبها الخطاب العفوي و هي عبارة عن اختصار الكلام واختزال الحروف والحركات وقصرها وكثرة الإدغام بين كلمة وأخرى وهو ظاهرة عامة الوجود لا تختص بها لغة دون لغة. فالخفة في العامية اعتبرت لحنا وليس الأمر كذلك أبدا. فاللحن هو الذي يجعل اللغة تبتعد عن الفصحى في النحو و معاني المفردات أما الخفة فهي ظاهرة طبيعية وعربية التخاطب الفصيحة القديمة قد وصفها النحاة القدماء مثل سيبويه وعلماء القراءات أيضا وعدم وجود تعليم لقواعد الخفة الخاصة باللغة العربية جعلت الفصحى **المرتلة** التي تعلّم في المدارس –هي وحدها– غير صالحة للخطاب العفوي و قد صارت هذه اللغة المرتلة هي لغة التخاطب العادي في الأفلام التاريخية وهي تبدو لأكثر الناس غير طبيعية لأنها لا تستجيب لنواميس الأداء العفوي اليومي للغة.

ومثال ذلك النطق بالهمزة فقد وصف العلماء وأهل الأداء أنواعا من النطق بها ومنها ما استخفه العرب كالحذف للهمزة الساكنة في بير وذيب وكتسهيل المتحركة في سال أو إسقاطها في مَرَة عوض مرأة. فهذا كله كان موجودًا في التخاطب الفصيح وبقي في العاميات فاعتبر لذلك لحنا مع أنه ميزة للمستوى العفوي المسترسل في التخاطب العادي. وهو موجود **في جميع اللغات** ولا يعتبر لحنا ويُعلم في المدارس بل هو من كلامهم المستخف كما كان ذلك موجودا في استعمال العربية يوميا في الحاجات العادية. وقد وصفه النحويون الأولون كما قلنا مثل سيبويه

ويسمى هذا الأداء عند القراء بالدرج أو الإدراج (ولذلك سميت العامية باللغة الدارجة وهو وصفها المستخف لا الملحون منها).

ونقترح أن تدخل في المقرر الخاص بالعربية تعليم الأداء المسترسل كما نطق به العرب الفصحاء ولحاجتنا إلى لغة عربية فصيحة تستجيب لما يقتضيه التخاطب اليومي غير المكلف. وهذا لن يقضي على العامية بل سيجعل المثقفين يفضلون اللجوء إلى هذا الأداء الفصيح الذي تعلموه في المدرسة والذي يستجيب لمتطلبات التخاطب العفوي. ونقترح مع هذا اهتمام كل من له علاقة بالإعلام المسموع والمرئي باللجوء إلى هذا المستوى من الأداء الفصيح(1) المسترسل في كل تخاطب عفوي(2).

الخاتمـــة:

إن الثنائية اللغوية الحقيقية هي في استعمال لغتين مختلفتين في الحياة العامة في ميدان معين كالتعليم أو البحث العلمي أو المعاملات التجارية أو الإدارة. ولا ثنائية حقيقية في تعليم العلوم في الجامعات العربية الآن على الرغم من معرفة الطالب(السيئة غالبا) للغتين ولا في تعليم التاريخ في المدارس الخاصة ببعض البلدان العربية لأن هذا تعليم وحيد اللغة لا تستعمل فيه إلا اللغة الأجنبية. فالعبرة في ذلك هو في استعمال لغتين في ميدان واحد بالفعل. أما تحرير المراسلات والتعليمات وغيرها مما تحرره الإدارة فإن حصل ذلك باللغتين —لنفس الوثيقة أولا– فهي ثنائية لغوية.

---

(1) وقد يقترب الأداء في الحديث إذا كان موضوعه ثقافيا من هذا لأنه يبقى فيه ما هو غير فصيح.

(2) يمكن أن يُرجع إلى ما كتبناه في هذا الموضوع : العربية بين المشافهة والتحرير في كتاب: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية ج1.

وللثنائية اللغوية منافع وأضرار. فمثل ما ذكرناه من الثنائية في الحديث العادي والتخاطب اليومي واستعمال اللغتين في كتابة الوثائق فلا شك أنه غير مفيد إذا لم تفرضه الظروف وإذا صارت عادة مأنوسة لأن مثل هذه الثنائية هي مجرّد فضلة لا فائدة فيها إذ لا تقوم بوظيفة معينة.

أما ما لا يمكن أن يردّ من الثنائية فهي التي تكون وظيفية يهدف منها شئ معين. وهي كل ثنائية تقوم مقام الاكتفاء بلغة أجنبية بإبعاد اللغة العربية وذلك كالتعليم للعلوم والتكنولوجيا في الجامعات وكالتعليم الخاص. فبما أن استعمال اللغة الأجنبية في تعليم العلوم قد يُضطر إليه في عصرنا هذا إذ مازلنا وسنزال إلى أجل غير مسمى في الكثير من الميادين العلمية عالة على غيرنا. و لم تتوفر لنا بعد الوسائل لترجمة الكمية الهائلة من البحوث مع السرعة العجيبة التي يتصف بها التقدم في العلوم والتقنيات. فلابد من أن يكون الطالب العربي من الكلية العلمية وغيرها من الكليات العلمية قادرًا القدرة الكاملة على أن يتابع الدروس النظرية والتطبيقية باللغة الأجنبية إلا أن في إبعاد العربية تماما عن هذا التعليم أضرارًا تفوق المنافع. فالثنائية اللغوية ههنا تكاد تكون هي الحل الوحيد لتفادي التخلّف وفقدان الهوية العربية في نفس الوقت. وهذا ليس أمرًا بسيطًا أبدا فقد يحتاج التنفيذ لهذا الذي نتصوره ونرغب فيه إلى **دراسة دقيقة وتشاور واسع** يُفضيان إلى القيام بتجربة جزئية في بعض البلدان.

وقد اقترحنا بعض ما يمكن أن يساعد على النهوض باللغة العربية ومن ذلك هذه الثنائية الوظيفية المحدودة وبعض التدابير الفرعية المفيدة

كإنشاء مركز للترجمة العلمية في كل جامعة تكون لها إمكانيات كافية في ذلك والمصادقة على مشروع الذخيرة العربية لتنفيذ ذلك ودعم التكوين والتعليم وبالتالي رفع المستوى الثقافي بالعربية لكل مواطن. كما اقترحنا العناية بتكوين المعلم وذلك بإنشاء في كل إقليم في كل بلد لمعهد لتكوين المعلمين وغير ذلك.

والله ولي التوفيق

في توليد المفردات بالحاسوب

أ.د. موفق دعبول

أ. مروان البواب

لا يخفى أن للغة العربية خصائص ومزايا تجعلها قابلة للمعالجة الحاسوبية، ففيها خاصية الاشتقاق الصرفي، واعتماد المعجم على الجذور، والصلة الوثيقة بين المبنى والمعنى، وإطراد القياس في كثير من الحالات الصرفية والنحوية والصوتية.

وتكمن أهمية معالجة اللغة العربية بالحاسوب في التطبيقات الهامة والمتعددة المرجوة منها: كالترجمة الآلية من العربية وإليها، وتعرف الكلام وتركيبه، والقراءة الآلية للنصوص المكتوبة، والكتابة الآلية للنصوص المقروءة، واكتشاف الأخطاء اللغوية في النصوص وتصحيحها، والتحاور مع الآلة باللغة الطبيعية، وشَكل النصوص غير المشكولة.

وللمعالجة الحاسوبية للغة العربية وجوه متعددة، فهناك المعالجة الصرفية، والنحوية، والدلالية، والصوتية...، وغيرها، وتنقسم المعالجة الصرفية إلى قسمين أساسين هما: الاشتقاق، والتحليل.

يتناول هذا المقال بعض النقاط المتعلقة بالقسم الأول من المعالجة الصرفية وهو الاشتقاق (أو توليد المفردات بالحاسوب).

1 – الجذور في العربية:

مما تمتاز به العربية أن مفرداتها ترد في الأعم الأغلب إلى جذور (أو مواد) ثلاثية، وأن عددا قليلا نسبيا من المفردات ترد إلى جذور رباعية أو خماسية أي إنه يمكننا أن ننظر إلى هذه المفردات على أنها مجموعة كلية تتألف من عدد من المجموعات الجزئية، تحتوي كل منها على عدد من المفردات ينظمها انتماؤها إلى جذر واحد، هو عنوان هذه المجموعة الجزئية.

فالمجموعة الجزئية للجذر (ك ت ب) مثلا تحتوي على عدد من المفردات نحو: [كَتَبَ، كاتَبَ، تكاتب، استكتب، كتابة، مكاتبة، استكتاب، كاتِب، مكتوب، كِتاب، وكتبية...الخ]، وجميع هذه المفردات تحوي في تركيبها حروف الجذر (ك ت ب).

أما عدد المفردات في كل مجموعة جزئية فيتناسب طردا مع خصوبة الجذر، من بضع مفردات إلى عشرات المفردات.

هذا وقد بلغ عدد الجذور المُحْصبة – أي التي يتولد منها أفعال – (7420) جذرا، منها (5590) جذرا ثلاثيا، و(1830) جذرا رباعيا.

منها: أننا بمعالجتنا للمفردات عن طريق الجذور سنوفر الكثير من الجهد والزمن، فبدلا من أن نعالج مئات الألوف من المفردات، نعالج بضعة آلاف من الجذور، دون التفريط بشيء من صحة هذه المعالجة ودقتها.

ومنها: أن عدد حروف الجذر غالبا ما يكون أقل من عدد حروف الكلمة؛ فالجذور هي في الأعم الأغلب ثلاثية، أما الكلمات فقد يصل طول بعضها إلى عشرة حروف، أو أكثر، ومن ثم فإن معالجة الكلمات عن طريق جذورها فيه تيسير واختصار.

ومنها: أن الجذر يتألف من الحروف فقط، ولا يحوي الحركات، وهذا يعني أن معالجة المفردات عن طريق جذورها سيجعلها أكثر سهولة وسرعة، على أن الحاسوب سيعالج هذه الحركات عن طريق أوزان المفردات كما سنرى قريبا.

وهناك طرائق عديدة لتخزين الجذور في الحاسوب، منها مثلا: تخزين الجذور الثلاثية في مصفوفة ثلاثية الأبعاد(28، 28،28)، [28 هو عدد حروف الهجاء]، يختص البعد الأول بالحرف الأول لجذر، والبعد الثاني للحرف الثاني، والثالث للثالث، فالجذر (ن ظ ر) – مثلا- نجده في الخانة ذات الإحداثيات (25، 17، 10)، والجذر (ن ح ر) في الخانة (25، 6، 10)، وهكذا...أي إن إحداثيات الخانة في المصفوفة تدل على الجذر المحدد، أما الخانة نفسها فنخزن فيها المعلومات اللغوية الخاصة بالجذر.

وهكذا نجد أن مزية الجذور تيسر المعالجة الحاسوبية للعربية، إذ يستطيع الحاسوب أن يولد جميع المفردات – التي تبلغ مئات الألوف- اعتمادا على عدد قليل نسبيا من الجذور (لا يتجاوز بضعة آلاف)، وعلى عدد قليل أيضا من قواعد التوليد (لا يتجاوز العشرات)، وبذلك نضمن السرعة والدقة، ونقلل من حجم مكان التخزين في آن معا.

2 – أبواب تصريف الأفعال الثلاثية:

الفعل الثلاثي له – باعتبار الماضي مع المضارع – ستة أبواب ؛ هي: (فعَل يفْعل)، و(فعّل يفعِل)، و(فعّل يفعّل)، و(فعِل يفعَل)، و(فعُل يفعُل)، و(فعِل يفعِل)، وقد جمعوها منظومة بقولهم:

فَتْحُ ضَمٍّ فَتْحُ كَسْرٍ، فَتْحَتَان كَسْرُ فَتْحٍ، ضَمُ ضَمٍّ، كَسْرَتَان

بلغ عدد هذه الأفعال الثلاثية (7508) فعلٍ، توزعت على الأبواب الستة المذكورة كما يلي:

الباب	مثاله	عدد الجذور	النسبة المئوية
الأول	نصَر ينصُر	2110	28.17%
الثاني	جلَس يجلِس	1838	24.48%
الثالث	منَع يمنَع	1152	15.34%
الرابع	علِم يعلَم	1894	25.23%
الخامس	كرُم يكرُم	484	6.45%
السادس	حسِب يحسِب	25	0.33%
		7508	100%

وقد درجت بعض المعجمات القديمة (كالقاموس المحيط) على إيراد أمثلة أبواب تصريف الفعل الثلاثي لدلالة عليها، نحو: [فَخرَ: كفَرِحَ ومنع: تَكَبَّر]، أي إن الفعل (فخر) يتصرف من الباب الرابع: (فخِر يفخَر) ومن الباب الثالث: (فخَر يفخَر).

أما المعجمات الحديثة (كالمعجم الوسيط)، فتورد الفعل الماضي وإلى جانبه رمز عين مضارعه للدلالة على باب الفعل، نحو: [قتَر فلان ـُـ قترا: ضاق عيشه]، أي إن الفعل (قتر) يتصرف من الباب الأول: (قتَر يقتُر).

وأما في المعالجة الحاسوبية فيجري التعبير عن هذه الأبواب بالأرقام من 1 إلى 6، وتخزَّن هذه الأرقام مع جذور الأفعال.

ويقوم الحاسوب بتوليد الفعل الماضي والمضارع والأمر وفق الباب المذكور، اعتمادا على رقم الباب وعلى حروف جذر الفعل.

فهو يولّد الفعل الماضي، اعتمادا على الصيغة التالية:

c1+v1+c2+v2+c3+v3

حيث c1 و c2 و c3 حروف الجذر.

و (ـَـ) = v1 لأن حركة فاء الفعل الفتحة دائما.

و (ـَـ) = v2 إذا كان الرقم المقترن بالجذر هو (1) أو (2) أو (3)، و (ـُـ) إذا كان الرقم المقترن بالجذر هو (5)، و (ـِـ) إذا كان الرقم المقترن بالجذر هو (4) أو (6).

وأما v3 فلها قواعد مُحَوْسَبَة بحسب اتصال الفعل بالضمائر.

ويولّد الفعل المضارع، اعتمادا على الصيغة التالية:

c0+v0+c1+v1+c2+v2+c3+v3

حيث c0 أحد حروف المضارعة (أنيتت)، و c1، و c2، وc3 حروف الجذر.

و (ـــَـــ) = v0 لأن حركة حرف المضارعة الفتحة دائما.

و (ـــْـــ) = v1 لأن حركة فاء الفعل السكون دائما.

و (ـــَـــ) = v2 إذا كان الرقم المقترن بالجذر هو (3) أو (4)، و (ـــُـــ) إذا كان الرقم المقترن بالجذر هو (1) أو (5)، و(ـــِـــ) إذا كان الرقم المقترن بالجذر هو (2) أو (6).

وأما v3 فلها قواعد محوسبة بحسب اتصال الفعل بالضمائر، وكون الفعل المضارع مرفوعا أو منصوبا أو مجزوما.

ويولّد فعل الأمر، على نحو مماثل.

وينبغي التنبيه هنا على مسألتين: (الأولى) هي أن الحاسوب يولّد هذه الأفعال مسندة إلى جميع الضمائر (المتكلم، والمخاطب، والغائب)، وفي جميع حالاتها الإعرابية، و (الثانية) هي أن هذه القواعد خاصة بالأفعال السالمة (التي تُكوّن قرابة 60 % من الأفعال كما يتضح من هذا الجدول).

نوع الفعل	النسبة المئوية لعدد الأفعال
السالم	57.04%
المضعف	7.6%
المهموز	7.7%
المثال	4.94%
الأجوف	11.51%
الناقص	10.32%
اللفيف	0.87%

أما الأفعال غير السالمة (وهي: المضعّف، والمهموز، والأجوف، والمثال، والناقص، واللفيف) فتحتاج إلى قواعد إضافية، تتعلق بالإدغام، والإعلال... كما سنرى لاحقا.

3 – أبنية الأسماء والأفعال:

مما تمتاز به العربية أيضا، أن مفرداتها تنتظمها أوزان (أبنية) محددة، بعضها يختص بالأسماء وبعضها الآخر يختص بالأفعال، فمن أمثلة أوزان الأسماء: فَعْل (بَيْت)، وفَعَل (جَبَل)، وفاعل (عالم)، وفواعِل (قَوارِب)، وفعالل (دراهم)...، ومن أمثلة أوزان الأفعال: فَعِلَ (شَرِبَ) وفَعْلَلَ (دحرج)، واسفعل (استغفر)...، ومع أن عدد هذه الأوزان يبلغ المئات، فإنها تقل كلما زاد عدد حروف الجذر، فلقد أكثر العرب التصرف في التصرف في الثلاثي لخفته في الاستعمال، فاستخدموا منه أكثر الأوزان التي يحملها، وأهملوا أقلها، أما الرباعي فقد ضيقوا نطاق استعماله، لثقله على اللسان، فاستخدموا منه القليل، وأهملوا الكثير.

وما يعنينا من هذه الأوزان في المعالجة الحاسوبية، هو أنها تعطينا قوانين التوليد الأساسية للأفعال والأسماء على حد سواء.

فإذا استعرضنا أوزان الأفعال الثلاثية المزيدة مثلا وجدناها تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

قسم زِيد فيه حرف واحد، ويأتي على ثلاثة أوزان: (الأول) أَفْعَلَ كأكرَمَ، (الثاني) فَاعَلَ كقاتل، (الثالث) فعَّلَ كفرَّحَ.

وقسم زيد فيه حرفان، ويأتي على خمسة أوزان: (الأول) اِنْفَعَلَ كانكسر، (الثاني) اِفْتَعَلَ كاجتمع، (الثالث) اِفْعَلَّ كاحمرّ، (الرابع) تَفَاعَلَ كتباعد، (الخامس) تَفَعَّل كتعلم.

وقسم زيد فيه ثلاثة أحرف، ويأتي على أربعة أوزان، (الأول) اِسْتَفْعَلَ كاستخرج، (الثاني) اِفْعَوْعَلَ كاعشوشب، (الثالث) اِفْعَوَّلَ كاجلوّذ، (الرابع) افْعَالّ كاحمارّ.

وقد بلغ عدد هذه الأفعال الثلاثية المزيدة (13837) فعل، توزعت على هذه الأوزان على النحو الآتي:

	وزن المزيد	عدد الأفعال	النسبة المئوية
مزيد بحرف واحد	أفعل	2917	% 21.08
	فعّل	2719	% 19.65
	فاعل	1266	% 9.15
مزيد بحرفين	انفعل	652	% 4.81
	افتعل	1710	% 12.36
	افعّل	96	% 0.69
	تفاعل	1023	% 7.39
	تفعّل	2329	% 16.83
مزيد بثلاثة أحرف	استفعل	953	% 6.89
	افعوعل	62	% 0.45
	افعوّل	13	% 0.09
	افعالّ	97	% 0.70
	المجموع	13837	% 100

وكذلك فإن للفعل الرباعي المجرد وزن واحد هو فَعْلَلَ كدحرج، وأما الرباعي المزيد فيأتي على ثلاثة أوزان هي: تَفَعْلَلَ كتدحرج، وافْعَنْلَلَ كانحرنجم، وافْعَلَلّ كاقشعرّ.

وقد بلغ عدد هذه الأفعال الرباعية المجردة والمزيدة (2310) فعل.

وبذلك يكون مجموع أوزان الأفعال الثلاثية المزيدة والأفعال الرباعية (16) وزنا، فإذا رمزنا هذه الأوزان برموز مناسبة، وخزّنا هذه الرموز مع الجذور الخاصة بها، استطاع الحاسوب أن يولّد جميع هذه الأفعال (13837 + 2310= 16147 فعل) على حسب أوزانها المحددة على النحو الذي مر معنا آنفا، اعتمادا على هذه الرموز الستة عشر وعلى جذور الأفعال.

أما الأسماء (كالأسماء الجامدة، والأسماء المشتقة، والمصادر...)، فلها أيضا أوزانها الخاصة بها فاسم الفاعل مثلا يصاغ للثلاثي المجرد على وزن واحد هو (فاعِل) نحو: واضع، وبائع...، ويصاغ لغير الثلاثي المجرد على وزن الفعل المضارع المبني للمعلوم، مع إبدال حرف المضارعة ميما مضمومة، وكسر ما قبل آخره، نحو مُخْرِج، ومُتَوَاضِع، ومُسْتَغْفِر...

يولّد الحاسوب جميع هذه الأسماء اعتمادا على أوزانها وجذورها بالطريقة التي أشرنا إليها آنفا فهو يولد أسماء الآلة على وزن (مِفْعَلَة) مثلا وفق الصيغة التالية:

«م» + « ـِـــ» + ف + « ـْـــ» + ع + «ـَـــ» + ل + «ـَـــ» + « ة»

(حيث: ف = فاء الفعل، ع = عين الفعل، ل = لام الفعل)

فمن الجذر (ل ع ق) يولّد (مِلعقة)، ومن الجذر (ن ش ف) يولّد (مِنشفة)، ومن (ك ن س) يولّد (مِكنسة)، ومن (س ط ر) يولّد (مِسطرة)، وهكذا...

وينبغي التنبيه هنا على مسألتين: (الأولى) أن بعض الأسماء لها أوزان قياسية مطردة، فهذه يولّدها الحاسوب دون أن تكون رموز أوزانها مخزنة مع الجذور، وبعضها الآخر لها أوزان سماعية لا يقاس عليها، فهذه لا بد لتوليدها من أن تكون أوزانها مخزنة مع الجذور، (الثانية) أن توليد الحاسوب للأسماء يتناول تصريفها أيضا، أي توليد الأسماء في حالة التأنيث أو التثنية أو الجمع أو التعريف، أو الإضافة، أو التصغير...

4 – قواعد التصريف المشترك:

تشترك في هذه القواعد كل من الأفعال والأسماء، وتشتمل على قواعد الإعلال والإدغام، والإبدال ورسم الهمزة، وسنكتفي بإيراد أمثلة عنها طلبا للاختصار:

الإدغام:

مثال: يولّد الحاسوب الفعل الماضي المسند إلى ضمير المتكلم من الجذر (ع ل م) وفق ما يلي:

ف + « ـَـــ» + ع + « ـِـــ» + ل + « ـْـــ»+: تُ» ←

« ع» + «ـَـــ»+ «ل» + «ـِـــ»م»+ «ـْـــ» + «تُ»←عَلِمْتُ.

فإذا كان لام الجذر حرفَ التاء -(سكت) مثلاً- أعطى الحاسوب:

«س» + «ـَـــــ» + «ك» + «ـَـــــ» + «ت» +

«ـْـــــ» + «تُ» ⟵ «سَكَتْتُ»

هنا ينبغي على الحاسوب أن يعالج هذه الحالة، وذلك بأن يطبق قاعدة الإدغام الصغير:

«ت» + «ـْـــ» + «ت» + «ـَـــ» ⟵ «ت» + «ـُّـــ» ⟵ «تُ»

وبتطبيق هذه القاعدة نجد: نَحَتْتُ ⟵ نَحَتُّ

مثال آخر: يولد الحاسوبُ الفعلَ المضارعَ المُسْنَدَ إلى ضمير الغائب من (ن ص ر) وفق ما يلي:

«يَـ» + ف + «ـْـــــ» + ع + «ـُـــــ» + ل +

«ـُـــــ» ⟵

«يَـ» + «ن» + «ـْـــــ» + «ص» + «ـُـــــ» + «ر» +

«ـُـــــ» ⟵ «يَنْصُرُ»

فإذا كان الفعل مضعّفًا – (مدّ) مثلا- أعطى الحاسوب:

«يَـ» + «م» + «ـْـــــ» + «د» + «ـُـــــ» + «د» +

«ـُـــــ» ⟵ «يَمْدُدُ»

هنا ينبغي على الحاسوب أن يعالج هذه الحالة، وذلك بأن يطبق قاعدة الإدغام الكبير:

«م» + ـْـــــ + «د» + ـُـــــ + «د» +

ـُـــــ ⟵

«م» + ـُـ + «د» + ـْـ + «د» + ـُـ «م» + ـُـ + «د» + ـُـ

وبتطبيق هذه القاعدة نجد: يَمْدُدُ ← يَمُدُّ

الإبدال:

مثال: يولد الحاسوب الفعل الماضي المزيد المُسْنَدَ إلى ضمير الغائب من الجذر (ج م ع) على وزن (افْتَعَلَ) وفق ما يلي:

«ا» + ف + «ـْـ» + «ت» + «ـَـ» + ع + «ـَـ» + ل + «ـَـ» ←

«ا» + «ج» + «ـْـ» + «ت» + «ـَـ» + «م» + «ـَـ» + «ع» + «ـَـ» ← «اجْتَمَعَ»

فإذا كان فاء الجذر حرفَ الصاد –(صبر)مثلا– أعطى الحاسوب:

«ا» + «ص» + «ـْـ» + «ت» + «ـَـ» + «ب» + «ـَـ» + «ر» + «ـَـ» ← «اصْتَبَرَ»

هنا ينبغي على الحاسوب أن يعالج هذه الحالة، وذلك بأن يطبق قاعدة الإبدال:

«ص» + ـْـ + «ت» + ـَـ ← «ص» + ـْـ + «ط» + «ـَـ» (في صيغة افتعل)

وبتطبيق هذه القاعدة نجد: اصْتَبَرَ ← اصْطَبَرَ

الإعلال:

مثال: يولّد الحاسوبُ الفعلَ المضارع المُسْنَدَ إلى ضمير جماعة المتكلمين

من الجذر (ج ل س) وفق ما يلي:

«نَـــ» + ف + «ـــْـــ» + ع + «ـــِـــ» + ل + «ـــُـــ» ⟵

«نَـــ» + «ج» + «ـــْـــ» + «ل» + «ـــِـــ» + «س» + «ـــُـــ» ⟵ «نَجْلِسُ»

فإذا كان الفعل أجوف – (سار) مثلا– أعطى الحاسوب:

«نَـــ» + «س» + «ـــْـــ» + «ي» + «ـــِـــ» + «ر» + «ـــُـــ» ⟵ «نَسْيِرُ»

[ملاحظة: ورد حرف الياء هنا، لأن الألف في (سار) أصلها الياء].

هنا ينبغي على الحاسوب أن يعالج هذه الحالة، وذلك بأن يطبق قاعدة الإعلال بالتسكين:

«س» + ـــْـــ + «ي» + ـــِـــ ⟵ «س» + ـــِـــ + «ي»

وبتطبيق هذه القاعدة نجد: نَسْيِرُ ⟵ نَسِيرُ

مثال آخر: يولّد الحاسوب اسم الفاعل للمفرد المذكر من الجذر (ض ر ب) وفق ما يلي:

ف + «ا» + ع + «ـــــــ» + ل + «ـــــــٌـــ» ⟵

«ض» + «ا» + «ر» + «ـــــــ» + «ب» + «ـــــــٌـــ»

فإذا كان الفعل ناقصًا – (غزا) مثلا– أعطى الحاسوب:

«غ» + «ا» + «ز» + «ـــ» + «و» + «ـــٌـــ» ⟵ «غازِوٌ»

[ملاحظة: ورد حرف الواو هنا، لأن الألف في (غزا) أصلها الواو].

هنا ينبغي على الحاسوب أن يعالج هذه الحالة، وذلك بأن يطبق قاعدة الإعلال بالحذف:

«ز» + ـِـــــ + «و» + ـٌـــــ ← «ز» + ـٍـــــ

وبتطبيق هذه القاعدة نجد: غازِوٌ ← غازٍ

مثال ثالث: يولد الحاسوب اسم الفاعل للمفرد من الجذر (ن ص ر) وفق ما يلي:

ف + «ا» + ع + «ـِـــــ» + ل + «ـٌـــــ» ←

«ن» + «ا» + «ص» + «ـِـــــ» + «ر» + «ـٌـــــ»

← «ناصِرٌ»

فإذا كان الفعل أجوف – (باع) مثلا- أعطى الحاسوب:

«ب» + «ا» + «ي» + «ـِـــــ» + «ع» + «ـٌـــــ»

← «بَايِعٌ»

[ملاحظة: ورد حرف الياء هنا، لأن الألف في (باع) أصلها الياء].

هنا ينبغي على الحاسوب أن يعالج هذه الحالة، وذلك بأن يطبق قاعدة الإعلال بالقلب:

«ا» + «ي» + ـِـــــ ← «ا» + «ئـ» + ـِـــــ

وبتطبيق هذه القاعدة نجد: بايِعٌ ← بائِعٌ

رسم الهمزة:

مثال: يولّد الحاسوب الفعل المضارع المسند إلى ضمير جماعة الغائبين

من الجذر (م ن ع) وفق ما يلي:

« يَـ» + ف + « ـْـ»+ ع + «ـَـ»+ ل + « ـُـ»+ « ونَ»

« يَـ» + م + « ـْـ»+ ن + «ـَـ»+ ع+ « ـُـ»+ « ونَ»

يَمْنَعُونَ.

فإذا كان الفعل مهموزا – (قرأ) مثلا- أعطى الحاسوب:

« يَـ» + ق + « ـْـ»+ ر + «ـَـ»+ ء+ « ـُـ»+ « ونَ»

← يَقْرَءُون.

هنا ينبغي على الحاسوب أن يعالج هذه الحالة، وذلك بأن يطبق قاعدة رسم الهمزة:

ـَـ+ « ء»+ ـُـ ← ـَـ+ « ؤ» + ـُـ

وبتطبيق هذه القاعدة نجد: يَقْرَءُون ← يَقْرَؤُون.

المراجع:

– **إحصاء الأفعال العربية في المعجم الحاسوبي**، البواب، مرياتي، مير علم، الطيان، مكتبة لبنان، ط1، 1996

– **أسلوب معالجة اللغة العربية في المعلوماتية**، في كتاب « استخدام اللغة العربية في المعلوماتية»، إصدار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1996

– **تصريف الأفعال والأسماء**، فخر الدين قباوة، مكتبة المعارف، 1988

- **جامع الدروس العربية**، مصطفى الغلاييني، المكتبة العصرية، ط 26، 1992
- **شذا العرف في فن الصرف**، أحمد الحملاوي
- **اللغة العربية والحاسوب**، نبيل علي، دار تعريب، الكويت، 1988
- **المعالجة الصرفية للعربية بالحاسوب**، المجلة العربية للعلوم، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، العدد 32، 1998
- **النحو الوافي**، عباس حسن، دار المعارف بمصر، ط4، 1966
- **نظام الاشتقاق والتصريف في العربية**، مجلة معلوماتي، الحاسوب والتقنيات، العدد 86، كانون الأول 1999

المنصـــور بن أبي عامر في شعر ابن دراج القسطلي

د. عبد القادر هني و شابحة حمرون
جامعة الجزائر2

قبل أن نشرع في الكشف عن شخصية المنصور بن أبي عامر كما تجلت في شعر ابن دراج القسطلي يجمل بنا، ومن دون الخوض في تفاصيل تاريخية تثقل مقالنا أن نشير إلى أن وفاة الحكم المستنصر خليفة الأندلس سنة 366 هـــ فتحت مجالاً للتنافس على السلطة بين طائفة من العناصر التي استطاعت أن تضمن مكاناً في محيطها ، بالنظر إلى أن هشام بن الحكم المرشح لخلافة أبيه لم يكن قد بلغ سن الاحتلام ففكرت بعض أطراف النزاع في صرف الأمر إلى عمه المغيرة الذي نجحت الأطراف المعارضة في تدبير مكيدة لتصفيته ، فتـــمت البيعة لهشام كيما يسهل الحجر عليه والاستئثار بالسلطة من دونه ، وهو ما اتفق للمنصور بن أبي عامر بعد أن تخلص من منافسيه واحدًا واحدًا فأحكم قبضته على كل شيء واستحوذ بالسلطات وحده من دون سواه و أصبح سيد الأندلس من غير منازع فساسها سياسة ضمنت لها الأمن والاستقرار والحياة الكريمة ، فقد ساس الأمور كما قال ابن عذاري نقلا عن الفتح

بن خاقان «أحسن سياسة، وداس الخطوب بأخشن دياسة ، فانتظمت له الممالك و اتضحت به المســـــــالك و انتشر الأمن في كل طريق ، واستشعر اليمن كل فريق ، و ملك الأندلس بضعا و عشرين حجة ، لم تدحض لسعادتها حجة و لم تزخر لمكروه لجة ، لبست فيـــــــها البهاء والإشراق ، و تنفست عن مثل أنفاس العراق ، و كانت أيامه أحمد أيام وسهام بأسه أشد سهام» [1]

إن شخصية تتوافر على هذه الكفاءة هي الكفلية بضمان الأمن والاستقرار في بلد رؤوس الفتنة فيه لا تكاد تنام حتى تعاود الظهور فتنتشر الفتن ويَعُمَّ الاضطراب في حقب تولى سدة الحكم فيها حكام ضعاف كما حدث عقب وفاة عبد الرحمن الأوسط (ت 238 هـــ) إلى مطلع القرن الرابع الهجري و هي الفترة التي لخص حسين مؤنس حال بلاد الأندلس في أثنائها بمثل قوله: «فلما توفي الأمير عبد الرحمن بن الحكم و تولى الإمارة أمراء ضعفاء، امتد حكمهم ما يقرب من ثلثي قرن من الزمان (300-238 هـــ) ، تمزقت وحدة الأندلس وقام الثوار في سائر أنحائها بشق عصا الطاعة على الحكومة المركزية واستقلوا بحكم المناطق التي ثاروا فيها، وتقلص نفوذ أمراء بني أمية فأصبح سلطانهم لا يتعدى قرطبة ونواحيها، وهكذا أحاطت الأخطار بدولة بني أمية التي كانت تجتاز يومئذ مرحلة من أدق مراحل تاريخها السيـــــاسي وتفككت الوحدة السياسية و تعددت أجناس أمراء الطوائف أو أصحاب الدويلات المستقلة»[2] ، هذا الوضع الذي تردت فيه الأندلس ، وإن استطاع عبد

الرحمن الناصر رأب صدعه فإن ابنه الحكم و إن بدا ظاهرًا أن الأمر قد استقام في عهده كل الاستقامة ، فإن ميله الواضح إلى تنشيط الحركة الثقافية على حساب إحكام قبضته على الحكم سيفتح الطريق لظهور عناصر مُتنفذة في القصر سيكُون لها دور بارز في إدارة شؤون الدولة وفي توجيه سياستها كما هي الحال بالنسبة إلى الحاجب المصحفي الذي قال عنه المقري «..... و لم يزل يستقل ويضطلع و ينتقل من مطلع إلى مطلع حتى التاح في أفق الخلافة و ارتاح إليها بعطفه كنشوان السلافة واستوزره المستنصر ، وعنه كان يسمع وبه يبصر وحجب الإمام وأسكب برأيه ذلك الغمام ، فأدرك لـــــذلك ما أدرك ونصب لأمانيه الحبائل والشراك فاقتنى اقتناء مدخر و أزرى بمن سواه و سخر ...»[3]

هذا مثال فرد للنفوذ الذي كان لبعض الشخصيات التي قربها الحكـــم المستنصر فغطت على غيرها و حجبت عليه الحقائق و أنبتت في النفوس أحقادًا و عدوات و هيأت للوضع الذي ستؤول إليه الأمور بعد وفاة الحكم (ت 366 هـــ) : فقد استحر الصراع بين العناصر التي كان الخليفة قد أسلس لها قياده في حياته فاستحلت كل الوسائل ، ما شـــــرف منها و ما رخص ، لبلوغ مآربها و بسط نفوذها و تعزيز مراكزها لتنقاد الأمور لها ، فكتبت الغلبة في النهاية لأشد هؤلاء الطامحين مكرًا ودهاء، وأكثرهم خبثاً ، الذي أدار الصـــــراع إدارة مكنته من إقصاء منافسيه والتخلص منهم واحدًا واحدًا و ليس هذا الرجل سوى المنصور بن أبي عامـــر الذي كان – كما يقول ابن الخطيب – «آية من آيات الله

فطرة دهاء و مكر وسياسة ، عدا بالمصافحة على الصقالبة حتى قتلهم، ثم بغالب على المصافحة حتى قتلهم ثم عدا بجعفر بن الأندلسي على غالب حتى استراح منه، ثم عدا بنفسه على جعفر حتى أهلكه ، ثم انفرد بنفسه ينادي صروف الدهر هل من مبارز؟ فلما لم يجده حمل الدهر على حكمه فانقاد له وساعده و استقام له أمره منفردًا بسابقـــة لا يشاركه فيها غيره».[4]

ومن الطبيعي و قد غَطَّى المنصور على من عداه و ألقى بظلاله على مسرح الأحداث داخل البلاد و حتى خارجها بما اتفق له من انتصارات في المعارك التي نقل رحاها إلى الجيران الأعداء الذين أدَّبهم و أحسن تأديبهم فانكفؤوا على أنفسهم و كفُّوا أيديهم عن الأندلس، ، أقول من الطبيعي و الأمر كذلك أن تلفت هذه الشخصية اهتمام شاعر من قامة ابن دراج القسطلي الذي قَضَّى عشرة أعوام في ظل حكم ابن أبي عامر بُسِط خلالها رداءُ الأمن على البلاد فعادات الطمأنينة إلى النفوس فاستلذت الحياة فاقبلت على نعيمها تَعُبُّ منه عبّاً . في هذا الأوان الذي انقشع فيها الغيم على أهل الأندلس و على أهل قرطبة على وجه الخصوص أغدّ ابن دراج ، و هو في أوج قوة الشباب ، إذ لم تتجاوز سِنُّهُ يومئذٍ خمسا و ثلاثين سنةً ، السير نحو هذه المدينة التي خطفت أضواؤها كل الأنظار و سحرت بما اتفق لها عصرئذٍ من جمـــال و بهاء العيون فتعلقت بها النفوس و هامت بها القلوب فوفد على المنصور بن أبي عامر و البلاط آنئذٍ يعج بشعراء يرمقون بعين السخط كل وافد جديد و يلفقون

له من التهم أشكالاً و ألواناً لإسقاطه قبل أن يلوح بريق نجمه ، فعن وصول ابن دراج إلى بلاط قرطبة يقول الحميدي « و كان للشعراء أيام المنصور أبي عامر ديوان يرزقون منه على مراتبهم ، و لا يخلُّون بالخدمة بالشعر في مظانها ، فسُعي به إلى المنصور ، و أنه مُنتحلٌ سارق لا يستحق أن يُثبت في ديوان العطاء فاستحضره عَشِيَّ يوم الخميس لثلاث من شوال سنة اثنتين و ثمانين و ثلاثمائة ، و اختبره واقترح عليه ، فبرز و سبق ، وزالت التهمة عنه ، فوصله بمائة دينار ، و أجرى عليه الرزق ، و أثبته في جملة الشعراء »[5].

إن عدم ترحيب شعراء ديوان المنصور بن أبي عامر بوفادة ابن دراج ، و سعيهم لإسقاطه بأخطر تهمة تلصق بشاعر و هي السرقة و الانتحال ، يدل فيما يدل عليه على إحساس هؤلاء الشعراء بعلوّ كعبه في حلبة القريض ، وشعورهم من ثمَّ بالظلال التي سيلقيها عليهم و باهتزاز الأرض تحت أقدامهم و بالمنزلة التي سيحظى بها لدى شخصية طموحة تبحث عن صوت شعري قوي يُذيع دوي انتصاراته و أمجاده في الآفاق ، فقد ذكر الحميدي في جذوة المقتبس أنه لما اتفق لابن أبي عامر فتح شنت ياقب و غيرها من القلاع الحصينة التي لم يصل إليها أحد قبله ، استدعى ابن دراج و عبد الملك بن إدريس الجزيري وأمرهما بإنشاء كتب الفتح إلى الحضرة ، فجاءه ابن دراج بعد المهلة التي طلبها منه « بنسخة الفتح، وقد وصف الغزاة من أولها إلى آخرها، و مشاهد القتال و كيفية الحال، بأحسن وصف ، و أبدع رصف، فاستُحسنت ، ووقع الإعجاب بها ،

و لم تزل منقولة متداولة إلى الآن ، و ما بقي من نُسخ ابن الجزيري في ذلك الفتح على كثرتها عين ولا أثر «.[6]

فإذا كان تردد قصيدة القسطلي في الفتح المشار إليه قد تواصل إلى أيام تأليف جذوة المقتبس الذي يقع في حدود سنة 448 هـ فيما عفّى الزمن على كتاب الجزيري ، فإن سيرورة شعره هذه تنم عن رسوخ قدمه وعلوِّ قامته في حلبة الشعر ، و هي مترلة و كّدها له مؤرخو الأدب الأندلسي فاعترفوا له بالسبق و التقدم على أقرانه و معاصريه كما عبَّر عن ذلك ابن بسام الذي قال في حقه « كان أبو عمر القَسْطلِّي وَقْتَهُ لسان الجزيرة شاعرًا و أوَّلاً حين عدَّ معاصريه من شعرائها المشهورة ، و آخر حاملي لوائها و بهجة أرضها و سمائها ، و أُسْوة كُتّابها و شعرائها ، له عُقِدَ فخرُها المحمولُ و سُهِمَ ، و به بدئ ذكرها الجميلُ و خُتم ، حَلَّ اسمه من الأماني محل الأُنسْ، و سار نظمه و نثره في الأقاصي و الأداني مسير الشمس ، و أحد من تَضاءلتِ الآفاق عن جلالة قدوره ، و كانت الشام و العراق أدنى خُطى ذكره «.[7]

هذه المكانة التي تَسَنَّمَها بفضل موهبته و جعلته يستحق في نظر بعْضِ من ترجم له صفة الفحولة في الشعر و لقب مُتَنَبّي المغرب [8]،هي التي استشعرها — ربما — شعراء ديوان المنصور فعملوا على قطع طريقه إلى البلاط العامري ، و هي التي لاحت معالمها لابن أبي عامر — على ما يبدو — من خلال القصيدة التي ترنَّم بها بين يديه فدفعت عنه همة السطو على أشعار غيره ، و عقدت الصلة بينه و بين هذه الشخصية التي ستكون

مُلْهِمَةَ جُلّ ما جادت به قريحته من درر في مدة اتصاله بها التي امتدت من 382 هـ إلى التحاق المنصور بالرفيق الأعلى عام 392 هـ ، و ليس هناك ما يدعو إلى الاستغراب من أن يدير جل شعره – إن لم يكن كله– حول الحاجب العامري الذي لم يعد في ناظره مجرد ممدوح يُنشَد، فيعطي إنما كان يمثل بالنسبة إليه رمزًا للقوة و البطولة و الانتصار ، و هو ما حدا بمحقق ديوانه إلى القول « و إعجاب ابن دراج بشخصية هذا البطل الإسلامي إنما كان صورة لإعجاب الشعب الأندلسي المسلم جمعيه به ، فقد كان المنصور رمزًا لمجد الإسلام في تلك البلاد ، ذلك المجد لم يقدر للمسلمين أن يستعيدوه مرة أخرى طوال تاريخهم في إسبانيا بعد انتشار سلك الدولة العامرية » [9].

إن القول في المنصور ستمليه بناء على ما ذكرناه ، دوافع تتجاوز الاعتبارات المادية التي يرتبط بها شعر المدح في الغالب و التي و إن كنا لانستثني منها شعر ابن دراج في ابن أبي عامر استثناء كاملاً لا سيما في الأيام الأولى من اتصاله به ، فإننا نُرجّح أن تكون شخصية المنصور وإنجازاته هي محركه الأول و باعثه على القول .و لا نستبعد ، كما أومأنا، أن تكون الحظوة التي وجدها عند هذه الشخصية الرمز و ما كانت تغدقه عليه بسخاء محفزًا آخر لإطلاق اللسان من كل قيد في إبداء الكلام وإعادته في فضائل المنصور بن أبي عامر على البلاد و العباد و هو ماكان المنصور في مسيس الحاجة إليه ليغطي على النهج الذي انتهجه للوصول إلى السلطة و جمع مقاليدها في يده، فكان أحوج ما يكون إلى

أديب شاعر من مترلة ابن دراج يُعلي نجم مُلكه و يبرر سيرته في الاستبداد بالأمر و اغتصاب الملك من بين أيدي هشام المؤيد بالحيلة و الكيد و المكر و الدهاء ، فشاعر مفلق من مترلة القسطلي هو الذي بمستطاعه أن يثمن و يزين في أعين الناس ما يُعد تطاولاً و جرأة غير مسبوقة من المنصور ، و قمين بالقصيدة التي أنشدها بين يديه غداة وفادته عليه أن تنبهه إلى ما يتوافر عليه هذا الشاعر القادم من قسطلة دراج من مواهب و قدرات تؤهله للمهمة التي سيلقي بثقلها عليه ، و قد استهل هذه القصيدة كما يلي:

أضاء لها فجر النّهى فنهاهـــــا عن الدَّنفِ المُضْنَى بحَرّ هواها

وَظللَها صبحٌ جلا ليلة الدُّجَى و قد كان يَهديها إليَّ دُجاهـــا

و هما البيتان اللذان أثبتهما الحميدي في جذرة المقتبس ثم علق على القصيدة كلها بمثل قوله « و هي طويلة مستحسنة ، فساء الظن بَجْودة ما أتى به من الشعر و اتُّهم فيه» [10]. و إذا عرفنا أن ممن أساؤوا الظن فيه من شعراء الديوان صاعد البغدَادي الذي كان نجمة يومئذٍ ساطعاً في قصر المنصور ، و عرفنا أيضا أن القسطلي اختار أن تكون قصيدته المطعون فيها في معارضة قصيدة لصاعد ، حسبما ذكره الحميدي ، ظهر لنا أن ابن دراج قد أبان عن نواياه مبكرًا و هي زحزحة شاعر المنصور الأول عن العرش الذي تربع عليه ليستأثر بتمجيد هذا البطل الرمز الذي نتوقع أن تكون أخبار بطولاته و انتصاراته قد تناهت إليه و هو في بلدته فكانت من بين العوامل التي حفزته على أن يبمم وجهه نحو حاضرة

الملك قرطبة ، ليكرس شعره لخدمته و إذاعة صورته في الآفاق ، فكان عليه إذًا أن يفرض نفسه بفنه و بكل ما حباه الله به من مواهب في هذا المضمار. و يبدو لنا أن القصيدة التي ارتجلها بحضرة المنصور ليرد على متهميه و المشككين في أصالة شعره خير بيان على طموحه لأَنْ يكون شاعر المنصور الأول غير مدافع ، فلنصغ إليه و هو يرد على مَنْ لَفَّقُوا له تهمة السرقة و الانتحال في قصيدة وصفها الحميدي بالحسنة الطويلة. فمما جاء فيها من إشارات إلى ما ذكرناه قوله [11]:

ولَسْتُ أوّلَ من أَعْيَتْ بَدائعَـهُ فاستدعت القَوْلَ ممن ظَنَّ أوحَسِباَ
إن امرأ القيس في بَعْضٍ لَمُتّـهَمٌ وفي يَدَيْهِ لِواءُ الشعر « إن ركبا»
والشعرُ قد أَسَرَ الأعشى و قَيَّدَهُ خُبْرًا و قد قِيلَ «والأعشى إذا شربا»
وكيف أظما و بحري زاخرٌ فطناً إلى خيال من الضحضاح قد نضبا؟
فإن نأى الشَـكُّ عَنّيَ أَو فهَا أنذا مُهيأً لِجَـلي الخُبْـرِ مُرْتقِـباَ

هذه القصيدة التي برَّز فيها و حَلَّق أخرصت خصومه و ألقمتهم حجارة مدمية : فقد قربة المنصور من نفسه وجَلَّ عنده ، فأصبح منذئذٍ لسان حال الدولة العامرية وسبَّاق حلبة شعرائها كما جاء في الذخيرة [12]، فاكتسب ثقة أكبر في النفس، فانطلق لسانه و تدفق فنه بوفرة بعد انكشاف الغم الذي شَمِلَهُ جَرَّاءَ المؤامرة التي دُبرت لخنق أنفاسه و لي عنقه ، فسجَّل انتصـــــاره على المتآمرين بصوت لم يَخلُ من الزهو و الفخار و الخيلاء ، كما تنطق بذلك الأبيات الآتية التي نختارها من القصيدة نفسها [13]:

عبدٌ لِنُعْمَاكَ في كَفَّيه نَجْمُ هُدًى سار بمدحِكَ يَجْلُو الشَّكَّ و الرِّيبَا
إن شئتَ أَمْلَى بديع الشّعرِ أو كتبا أو شئتَ خَاطَبَ بالمنثور أو خَطَبا
كَرَوْضَةِ الحَزْنِ أهْدَى الوَشْيَ مَنْظَرُها و الماء و الزَّهْرَ و الأنوار و العُشُبا
أو سَابقَ الخيلَ أَعْطَى الحُضْر متئدًا و الشَدَّ و الكرَّ و التقريب و الخببا
من بعد ما أضرم الواشون جاحمة كانت ضلوعي و أحشائي لها حطبا
و دسسوا لي في مثنى حَبَائلهم شنعاءَ بثتُّ بهاحرَّان مكتئبا
حتى هُزِزْتُ فلا زَنْدُ القريض كَبَا فيها لَدَيَّ و لا سيـــف البديه نبا
وأشرقت شاهدات الحقِ تنشـــر لي نُورًا غَدَتْ فيه أقـــوال الوشاة هبا
هيهات ! أعْجَزَ أهل الأرض أن يجدوا للدُّرِ غيـــرَ عُبابِ البـــحر مُنتسَبا
وحاشَ للورد أن يُعزَى إلى رمضِ وأن يَكون لـــه غيـــرُ الربيع أبا !

أصبح الأمان يملأ جوانح ابن دراج في لحظة النصر هذه التي احتضَنَهُ فيها المنصور بملء ذراعيه : فسكنه إحساس عميق بمستقبله شاعرًا خادما للدولة التي وجدت فيه الشاعر القوي العارضة الذي كانت تفتش عنه ، و مُنْذُ هذا الأوان الذي أُلبس فيه تاج دولة الشعر في ظل الدولة العامرية وانعقد له فيها لواء النصر الفني ، تبدأُ رحلته مع الحاجب العامري الذي كانت بيده مقاليد الرياسة ، بعد أن ألقى عصا تسياره عند بابه و طوى صفحة من حياته لا نعرف عنها الشيء الكثير ليفتح صفحة أخرى منها و القريض قد انقاد له و أسلس له القياد فأبان فيه عن باع طويل كما تَشِفُّ عن ذلك الأبيات التي أثبتناها من القصيدة التي أبطل بها مزاعم

خصومه و كسب بها ثقة ممدوحه ، وكما تؤيد ذلك بعض العبارات التي تخللت الكلام الذي ترجم له به بعض مؤرخي الأدب ، فهو عند الحميدي مثلا «معدودٌ في جملة العلماء و المقدمين من الشعراء و المذكورين من البلغاء ، و شعره كثير مجموع يَدُل على علمه ، و له طريقة في البلاغة و الرسائل تدل على اتساعه و قوته ... سمعت أبا محمد بن أحمد و كان عالماً بنقد الشعر يقول : لو قلت إنه لم يكن بالأندلس أشعر من ابن دراج لم أَبْعُد و قال مرة أخرى : لو لم يكن لنا من فحول الشعر إلاّ ابن دراج لما تأخر عن شَأو حبيب و المتنبي «[14] ، و عن بعض ما يُمَيَّز شعره يقول الشاعر الناقد ابن شُهيد :» و الفرق بين أبي عمر و غيره أن أبا عمر مطبوع النظام ، شديد أسر الكلام ، ثم زاد بما في أشعاره من الدليل على العلم بالخبر و اللغة و النسب و ما تراه من حَوْكِه للكلام و مِلْكِه لأحرار الألفاظ وسعة صدره و جَيْشَة بحره و صحة قدرته على البديع و طول طلقه في الوصف و بُغيته للمعنى وترديده وتلاعبه به وتكريره وراحته بما يُتعب الناس وسَعَة نفسه فيما يُضَيقُ الأنفاس»[15].

أما ابن بسام الذي شَعَر أن « من ذكره لم يوفه حقه و لا أَعْطَاهُ وَفْقَهُ و لا استوفى تَقدُّمَهُ و سَبْقَهُ» [16]، فنعت شعره بالنظم الرائق الذي سار مع نثره « في الأقاصي و الأداني مسير الشمس «[17].

على النحو الذي بَيَّناه، وقع اللقاء بين شاعر فَذ مُبَرَّز قوي الشكيمة ذي لسانٍ مِقْوالٍ مِدرارٍ ، وبطلٍ ذي همة قعساء ، فُلاذي الإرادة، مشرئب العنق نحو غايات تقف دونها المخاطر و المهالك فترافقا المدة

التي ألمحنا إليها ، و هي فترة كانت حافلة بالأحداث غنية بالإنجازات و الانتصارات التي تحققت لابن أبي عامر داخل بلاد الأندلس و خارجها ، فالمقّري يذكر أن ابن دراج رافق المنصور في أكثر غزواته التي بلغ عددها « ستاً و خمسن غزوة في سائر أيام ملكه لم تنكس له فيها راية و لا فلّ له جيش ...»[18]، و في سياق مماّثل نقل المقّري عن الفتح بن خاقان قوله في غزوات المنصور « إنه تمرَّسَ ببلاد الشرك أعظم تمرس و محا من طواغيتها كل تعجرف و تغطرس ، وغادرهم صَرْعى البقاع ، و تركهم أذلّ من وَتَدٍ بقاعٍ ، و والى على بلادهم الوقائع ، و سدَّد إلى أكبادهم سهام الفجائع ، وأغَصَّ بالحِمَام أرواحهم ، و نغصَّ بتلك الآلام بُكُورَهم و رَوَاحهم»[19] ، و يؤكد الحميدي هذه الهمة و هذه الروح الجهادية عند ابن أبي عامر فيذكر أنه « كان ربما يخرج إلى المصلى يوم العيد فتقع له نية في ذلك فلا يرجع إلى قصره و يخرج بعد انصرافه من الصلاة كما هو من فوره إلى الجهاد ، فتتبعه العساكر و تلحق به أولاً فأولاً ، فلا يصل إلى أوائل الدروب إلا و قد لحقه كل من أراد من العساكر .غزا نيفاً وخميسين غزوة ذكرت في المآثر العامرية ، و فتح فتوحاً كثيرة ، و وصل إلى معاقل جمة امتنعت على كل من كان قبله و ملأ الأندلس بالغنائم والسبي و كان في أكثر زمانه لا يخل بغزوتين في السنة «[20].

أوردنا هذه النصوص لا لِنُثقل مقالنا بالمادة التاريخية بقصد ملء الفراغ، إنما لنستشرف العلاقة التي ستنعقد بين الشاعر و بين ممدوحه، فالإنجازات البطولية التي تعرضت لها النصوص التي أثبتناها و غيرها لم تكن من قبيل

الأسطوري أو العجائبي الذي يحلو للخيال نسج مشاهده وصوره، بل هي واقع أكده التاريخ ، لذلك لا نستبعد أن تتطور علاقة ابن دراج بالمنصور لتصبح علاقة إعجاب و هيام بهذه الشخصية التي صنعت أمجاد المسلمين و مفاخرهم في الأندلس ، وحمت ذمارهم وديارهم وردَّت المكايد عن دولتهم ، فأضحت مأسر القلوب و مهوى الأفئدة ، فاستحقت التخليد ، و هذا ربما ما جعل محمد علي مكي يُحِسُّ شبهاً بين ما دَبَّجَهُ القسطلي في المنصور من شعرٍ و بين ما حبَّره المتنبي من مدح في سيف الدولة فقال: «والذي يقرأ شعر ابن دراج في القائد العامري ، لا يملك تفكيره من أن يَثِبَ إلى مدائح المتنبي لسيف الدولة ، فهو مدح ، لا يقوم فقط على الطمع و الرغبة – أي شاعر أو غير شاعر تجرد منهما ؟ و إنما المصدر الأول فيه هو شعور قوي من الإعجاب بشخصية الممدوح»[21].

قمين إذاً بشخصية مثل شخصية المنصور العامري التي حالفها النصر تلو النصر و انقاد للبلاد في ظلها عُنُقُ الاستقرار و الرخاء ، أن توفر لشاعر ذي لسان مدرار – كما ذكرنا- مادة عزيزة للقول ، فما احتفظ به ديوان ابن دراج مما خص به القائد العامري يقدر باثنتين و ثلاثين قطعة و قصيدة سوى ما يكون قد ذهب في خروم النسخة المخطوطة مما توقع محقق الديوان أن يكون من مدائح القسطلي العامرية [22].

و يجمل بنا في البحث عن ملامح هذه الشخصية في شعر ابن دراج الذي أفرغ فيها عددًا جماً من بدائعه ،أن نستهِلَّ رحلتنا مع الشاعر بقصيدة الوفادة ، لنقف على الخيوط الأولى التي رام رسمها لممدوح

سيأخذ منه مجامع القلب ، فيتفرغ له — في فترة اتصاله به — تفرغ الحبيب لمحبوبه ، حتى لا يكاد يلتفت إلى غيره . و سنحاول التوقف — بصفة خاصة- عند الأبيات التي أفردها منها للمدح الذي تخلص إليه بعد ستة و عشرين بيتًا سلخها في التقديم — شأن الأقدمين- للغرض الرئيس في القصيدة كما يلي [23]:

وَ أُحْيي نُفُوس الركب من ميتة الكَرى و قد عَطَفَ الليلُ التمامُ طُلاَها
بذكر أيادي العامـــري التي طَمـــت على نَأْي آفاقِ البِلاَد مُنَـــاها

ولكنه ينعطف بعد هذين البيتين ثانية إلى إكمال مقدمته بذكر تفاصيل أخرى عن رحلته إلى المنصور و ما صادفه خلالها من مصاعب و أهوال الطريق و ما أورث ذلك الرَّكْبَ من شديد المعاناة ، ليعود مرة أخرى إلى المدح في بيتين على هذا النحو :[24]

عسى راحة المنصور تعقب راحة وحتم لآمال العفاة عساهـــا
فلله منه قائد الحمـــد قادهـــــا ومنّى محدود الخطوب حداها

سوى إنه لا يواصل المدح كما هي العادة في أغلب الشعر العربي القديم إنما عدل عنه مرة أخرى للحديث عن أسرته التي خلفها وراءه طعماً لحرقة الفراق و ناره و نهباً للخوف مما تطويه لها الأيام — في غياب المعيل- من مفاجآت و من جفاء الأقربين ، و يغتنم لنفسه ، في هذا الموضع فرصة أخرى ليسوق بيتا آخر هو في الظاهر جواب لابنته التي من شدة تعلقها به كانت تبذل قصارى الجهد لحمله على التراجع عن قرار الرحلة إلى المنصور ، بينما هو في الأصل ضرب من الثناء على شيمة من

الشيم في ممدوحه فقد صاغه على النحو الآتي :[25]

وأقسم جود العامريّ ليرجعن حفيا بها من كان قبل جفاها

وتتتابع، بعد البيت الذي أعقب هذا، إشارات إلى الممدوح تَصُبُّ كلها في نفس مجرى المَعنى الذي ضمنه بيته السابق، قال:

وأَنَّى لها مثوى أبيها و قد دَعَـتْ بوارقُ كفّ العامري أباهـا

بُنَيَّ إليك اليـوم عَنّـي فإنَّهـا عزائمُ كَفُّ العامريّ مـداها

فحطَّت بِمَغْنَى الجودِ و المجد رَحْلَها وألقت بِرَبْعِ المُكْرَماتِ عَصَاها

لدى ملك إحدى لواحظِ طـرفه بعين الرِّضَا حَسْبُ المُنى وكفاها

بعد هذه الأبيات التي ركّز فيها ابن دراج على صفة الكرم و الجود في ممدوحه و هي من الصفات التي ألف الشعراء القدامى نسبة ممدوحيهم إليها ، يخرج إلى مدحه بمعانٍ أخرى فيقول :[27]

هو الحاجبُ المنصور و الملك الـذي سَعَى فـتعال جَدُّه فتنـاهى

سليلُ الملوكِ الصِّيدِ من سَرْوِ حِمْيَر الذي توسَّط في الأحساب سَمْك ذُرَاها

لبابُ معاليـها و إنسـانُ عَيْنِها وبَدْرُ دَيَاجِيـهَا و سمش ضحاها

مُعَظَّمُـها مَنْصُـورُها و جَوَادُها وفارسُـها يومَ الوغى و فتاها

ووَارثُ مُلْـكٍ أَثَّلَتْـه مُلُوكُهـاَ وأَوْرثَـه سبي الملوك «سباها»

ذوُو الملك والتيجـان والغرور التيوجَامِعُ شَمْليْ مجْدِهاَ و عُلاَهَا

نَمـاَهُ لِقَـوْدِ الخيل تُبَّعُ فَخرها جَـديرٌ بها التيجانُ أن تتباهى

شُمُـوسُ اعتلاءٍ تُوِّجَـتْ بأهلَّةٍ وسُرْبِلَـتِ الآجال فَهْو كَسَاها

تعمدنا تعمدًا أن نورد ما يقارب الثلث من هذه القصيدة التي اشتملت على ثلاثة و خمسين بيتاً ، لنتابع ابن دراج في تعامله مع ممدوحه منذ أول وفادته عليه و كيما تتكشف لنا ملامح شخصية المنصور كما ارتسمت في مخيال الشاعر فبالعودة إلى ما عرضناه من أبيات نلاحظ أنه يمكن تُصنيفها في مجموعتين من المعاني، تدور أولاهما حول معني السخاء و العطاء الجزيل أما ثانيهما فتتصل بأصل الممدوح و كرم نجاره و مجده الأثيل و فروسيته.

فيما يخص الصنف الأول من المعاني ، و قد جاء متفرقاً في أكثر من موطن في القصيدة ، فإنه يبدو في ظاهره غير خارج عن منظومة المعاني التقليدية في المدح كما تقدمت الإشارة ، غير أنها تضمنت وراء ذلك — في نظرنا- قيمة أخرى جاءتها من صلتها بالموضوعات الثواني التي رافقت المدح و التي امتدت أكثر من امتداد المدح نفسه، لا لأن الشاعر أشاح بنظره عن ممدوحه و أنزله في منزلة دون المنزلة التي كان أسلافه يرفعون إليها ممدوحيهم ، و إنما لأن الغاية التي حددها لقصيدته اقتضت منه أن يسلك هذا المسلك في عرضها ، فالشاعر ، كما تفصح عن ذلك القصيدة، كان يعاني الضياع المؤذن بالهلاك ، و إنسان هذه هي حاله ، من الطبيعي أن ينشد الخلاص من هذه الوهدة و أن يُبدي الكلام و يعيده في ظروف وصوله إلى الممدوح و العقبات التي انتصبت حياله و كادت تحول بينه و بين بلوغ بابه ، و هو أسلوب استفاده القسطلي — من دون الشك — من قراءاته في الشعر العربي القديم ، و لكن ما أضافه إلى معاني

المجموعة الأولى التي رشحت إليه من مقروئيته ، هو طريقته في التعامل مع ممدوحه . فمع كون وفادته هذه هي الأولى من نوعها على المنصور بالنسبة إليه . و هي وفادة لا تخلو من طابع المغامرة و من النتائج غير المضمونة ، بالنظر إلى أن بلاط ابن أبي عامر كان غاية عزيزة المنال ، و ولوجه غير متاحٍ لأي كان، و العقبة الأولى أمام طُرّاق بابه ـــ كما تقدم ـــ هي شعراء المنصور أنفسهم الذين ليس من السهل أن يقبلوا شريكا لهم في نعمائهم ، و مع ذلك نرى ابن دراج و دون سابق معرفة بممدوحه يتعامل معه من دون كلفة في شعره ، فيسميه عند أول ذكرٍ له في القصيدة « العامري» ، و هو لقب في صيغته هذه و في موقعه من النص يمكن أن ينصرف إلى غيره من بني عامر ، لكن هذا الذي يبدو في ظاهره جرأة من الشاعر سابقة لأوانها ، هو عنصر الجدة في مخاطبة الملوك لِمَا في هذا الاختيار من مفاجأة لخروجه عن المألوف في المدح لاسيما عند أول لقاء ، فإيثار هذه التسمية على غيرها في هذا الموضع من القصيدة يَنِمُّ عن الألفة التي أحسها الشاعر من ممدوحه حتى قبل أن يظفر برضاه ، فكأنّي به كان يُسر للمنصور ، في هذا الموطن ، معاني أخرى في الإعلاء من شأنه لا يُفصِحُ عنها ظاهر اللفظ ، منها أن سمعته قد طبقت الآفاق و أصبحت النفوس التي لا تعرفه تشعر بالقرب منه و بانعقاد الصلة بينه و بينها حتى قبل شهوده ، لأنه مَلَكَ عليها جوارحها و جوانحها ، و ملأ أحناءها حبّاً ، فأضحى قطعة منها ، فسقطت الحواجز و الكلفة بينه و بينها ، و مَلِكٌ قد تعلقت به النفوس هذا التعلق و شغفها حبًّا ، لا

يمكن أن تكون الرحلة إليه مغامرة ، بل إن من أرخى عنان دابته نحوه لا ينظر إلاّ أنْ يرى الخير و نعيم الحياة و قد أقبلا عليه حبوًا ، لذلك نرى الشاعر يجدد نشاط صحبه و يطرد عنهم التعب و الكرى باللَّهَج باسم « العامري « و بما ينتظرهم من عطائه الوفير . و إبعادًا لوهم الجرأة الوقحة و التَّسَوُّرِ على الملوك نراه بعد أبيات أخرى صوَّر فيها ما نال الركب من إجهادٍ و إعياء في فلاة استهلكت جسومهم و انحلتها ، نراه يعود إلى معنى المنح والعطاء ، مما قد يُعد في ظاهر الأمر تكرارًا لا مسوّغ له ، لكن للشاعر في ظننا ، رأياً آخر ، فهو ، من ناحية ، يريد أن يبيّن للمدوح أن الأمل معقود عليه في تفريخ روعه و جبر كسره و تضميد جراحه برفع شكاته عنه و تفريج ضائقته ، ثم إنه إذْ ذكره هنا باسمه الشخصي ، فإنه ليؤكد أن صنيعه في البيت المتقدم حين لقبه بـــ:» العامري» ، ليس من قبيل الجهل باسمه أو التجاهل لمنزلته و مقامه بين العامريين ، إنما لأن هذا اللقب العام بكل ثقله التاريخي أضحى إذا أطلق انصرف إليه وحده من دون سواه بوصفه النموذج و المثال لبني عامر عبر التاريخ ، أي إنه غدا مجمعاً للأمجاد و للفضائل و المناقب الموجودة مفرقة عند من عَدَاه من بني قومه و هذا ما سَوَّغ له — في تقديرنا — العودة إلى إطلاق هذا اللقب عليه مقترناً أيضاً بمعنى الجود و العطاء الذي بلغ أمل الشاعر في نَيْلِه مبلغ اليقين:

فليس من شيم من استحق هذه التسمية من دون أهله ، فَغَدَت أَدَلَّ عليه منه على غيره أن يُخّيبَ رجاءً أو أن يكون الأمل في عطائه كالأمل في برق خُلَّبٍ ، و هو ما يترجمه قوله الذي أثبتناه فيما تقدم :

و أقسم جُودُ العَامِرِيّ لَيَرْجِعَنْ خفياً بِها من كان قَبلُ جفاها

ليس المُرادُ من المعنى الذي تضمنه هذا البيت التحدث ، مجرد التحدث عن كرم الممدوح وجوده مثلما جرت العادة في قصائد المدح ، إنما المراد منه إضفاء قدرة خارقة على المنصور على تغيير الأحوال و قلبها رأساً على عقب : فبعد أن كـــــان القسطلي و عيـــاله يعيشون معيشة ضنكا على هامـــش المجتمع ، جعلت الناس يشيحون بوجوههم عنهم تحقيرًا و ازدراءً ، حتى لكأنهم من سقط المتاع الذي لا يلوي الركب به ، إذا بالعامري يجعل الأعناق التي كانت متطاولة عليهم بالأمس تنحني لهم و تشرئب متطلعة إليهم و القلوب التي جفتهم تهفو نحوهم ، و الألسنة التي ازدرتهم تلهج بذكرهم.وبيِّنةٌ علاقة معنى هذا البيت بما كان ذَكَرَهُ قبلاً من أن ما تَجُودُ به راحةُ المنصور و تُغدِقُ من آثاره جلب الراحة للممنوح له ، بمعنى إن عطاياه بمنزلة ما يجلب الشفاء للعليل و يعيد إليه قواه بعد انهيارها و يضفي عليه الرواء بعد ما طاله من شحوب و هزالٍ ، فالعامري إذاً يذود الموت عن الناس و يَرُدُّ عليهم غوائل الدهر و يؤمنهم من مخاوف الفاقة التي تترصدهم و من مهالكها . كما وَكَّدَ الشاعر ذلك بانعطافه مرة أخرى على معنى الكرم ، على سبيل المبالغة ، فأرانا الركب و قد بلغ ديار الممدوح ، و كأني به أناخ على الجود نفسه فغمرته المكرمات من كل جانب ، فنسي ضناه و متاعبه ، فأضحت أيام الضيق والفاقة مجرد ذكريات خلفها الركب وراءه ، فعادت إليه الحياة من جديد أو عاد إليها من بعيد بعد أن كادت الأنفس وقد نال منها السَّغب أن

تَرِدَ المهالك، فكأني بالشاعر وصحبه قد ولدوا من جديد وَسَطَ نعيم وافرٍ وحمايةٍ مضمونة من غوائل الدهر.

فحطت بمغنى الجود والمجد رحلها وألقت بربع المكرمات عصاها

لدى ملك إحدى لواحظ طرفه بعين الرضا حسب المنى وكفاها

فقد وقف الشاعر هنا مرة أخرى عند معنى العطاء والسخاء الذي تناوله في أبيات سابقة، وهذا التكرار له دلالة ينبغي أن نبحث عنها في أعماق ابن دراج: فالقسطلي كان يعيش في عُسْرٍ وفي ضيق حال شديد قبل وفادته على المنصور، فارتبطت رغبته في الانعتاق من هذه الحال بالمال، فراح يبدي فيه الكلام ويعيده بحسبه وسيلة لدفع شبح الفاقة التي ضيقت عليه وعلى عياله الخناق.

بعد هذا الذي وقفنا عنده، نراه يخرج إلى مدح المنصور بفضائل أخرى استمدها من منظومة القيم المدحية التقليدية، فقد أنزله في أعلى منزلة بين قومه الأقربين و الأبعدين, بعد أن أبان عن أصالة نسبه و كرم نجاره, ثم أمعن في إبراز قيمته في قومه و شدة حاجتهم إليه فإذا هو بالنسبة إليهم بمنزلة إنسان العين الذي لا يمكن أن تصلح أو تؤدي وظيفتها الحيوية من دونه, فكذلك المنصور, فهو النور الذي به يهتدون و قائدهم الذي هم به يسترشدون, فإذا غاب عنهم ضلوا السبيل و تعثرت بهم القدم كتعثر من فقد نور البصر بكل ما يعترضه في الطريق من عقبات. و توكيدا لمعنى الريادة والهداية الذي خصّ به ابن دراج شخص ممدوحه من دون سواه من أبناء قومه, نراه يجعل منه بدرهم الذي به يهتدون حين تتراكب

الظلمات و تشتد و تلتبس عليهم السبل و تتفرق, فيتفرقون أيدي سبأ, فتداهمهم المخاطر و المهالك من كل مكان, فيضحون مهدّدين بذهاب ريحهم في جوف الظلمات, فإذا به يخرجهم منها فينقذهم مما هم آئلون إليه. و كيما يزيد مترلة ممدوحه بروزا بين قومه فإنّه جعل منه أيضا شمس ضحاهم. هكذا نلحظ كيف كان التركيز متتاليا على معنى النور في بيت واحد. و حياة البشر لا تستقيم و لا تستطاب في غياب النور,و المولى تعالى نفسه وصف نفسه أنه نور السموات و الأرض «الله نور السموات و الأرض... «[28] معنى ذلك أن المنصور في منظور القسطلي هو عمود الحياة و مرتكزها بالنسبة إلى رعيته, فمثله مثل الشمس التي تتنكّد حياتها من دونها, أو كنعمة نور البصر التي إذا ما حرمها الإنسان عاش مصاعب و متاعب جمة. و هو أيضا كالبدر الذي إذا ما توارى واشتدت الظلمات و تراكب بعضها فوق بعض أورث ذلك النفس فرقا شديدا و تقاذفتها الوساوس و المخاوف في كل اتجاه و ركبها الذعر مما يتراءى لها من أشباح و صور حتى لتتمنى الموت ر أنّى لها أن تظفر به! و يبدو لنا أنّ معنى «النور» هنا مرتبط أيضا بحياة الشاعر نفسه في علاقتها بالمنصور, فحاجته إلى الانعتاق مما طوّق عنقه من ظروف شديدة قبل وصوله إلى قرطبة تجسّدت في هذا المعنى, فالدنيا و قد أسدلت بينه و بين مباهجها-و هو في قسطلة دراج- سترا صفيقة, ولّدت في نفسه شوقا إلى أنوارها التي يمثل المنصور بالنسبة إليه مصدرها و مبعث أشعتها, فهو المعوّل عليه في بزوغ فجر يوم جديد, بعد انحسار الظلام المتراكب الذي أناخ عليه و هو

في جوف مهمه قفر أو كما قال في الحديث عن رحلته و راحلته[29].

أشجّ بها و الليل مرخ سدوله سباريت أرض لا يراغ قطاها.

و دائما, و في هذه المجموعة الثانية من المعاني, نراه يسهر على تقوية الصورة الحاضرة لممدوحه بمعان يحفر عنها في أعماق التاريخ, فنسبه في حمير التي ورث ملكه من ملوكها, كما استمد مجده و فخاره منها. وفروسيته ليست هي الأخرى طارئة و لا حديثة, بل هي ضاربة بجذورها في القدم, فقد قال[30]:

نماه لقود الخيل «تبّع» فخـــرها و أورثه سبي الملـــوك «سبـــــاها»

فما دامت الملوكية جارية في دمه, فمن حقّه أن يعتلي ذراها و أن تتطأطأ له الرؤوس و تنحني الأعناق طاعة و خضوعا. و ليس غريبا أن يوقّع ابن دراج على هذه المعاني التي تلحّ على كرم نجار الممدوح و على عراقة نسبه و مجده التليد و فروسيته و على مفاخر قومه, و أن يذهب بعيدا في رفع الحجب عن الإرث النفيس من القيم التي يتوافر عليها ممدوحه و التي يرجح بها سجلّه على سجّل من عداه, فبحكم ثقافته التي تتنزّل في إطار الثقافة التقليدية, فإنه يعتقد, كما اعتقد أسلافه الذينيترسم خطاهم أن « طريق المدح أن يجعل الممدوح يشرف بآبائه, و الآباء تزداد شرفا به, فيجعل لكل منهم في الفخر حظا و في المدح نصيبا، فإذا حصلت الحقائق كان النصيبان مقسومين عليهم، بل كان لكل فريق منهم، لأن شرف الولد جزء من ميراثه، و منتقل إلى ولده كانتقال ماله، فإن رُعي و حُرس ثبت و ازداد، و إن أهمل و أضيع هلك و باد، و كذلك شرف

الولد يعمُّ القبيلة و للوالد منه القسم الأوفر»[31]، لذلك ستتكرر في مدحه مثلما تكررت عند أسلافه الذين غرف من ينابيعهم. لكن ما لابد من لفت الانتباه إليه هو علاقة مثل هذه المعاني بالسياق الاجتماعي و السياسي الذي يتنزل فيه شعر ابن دراج؛ فالقسطلي كان على وعي أنه يمدح شخصية ما يزال الشعور بالانتماء إلى القبيلة متوهجًا في ذاتها، إذ توافرت جملة من العوامل في الأندلس- ليس هنا مجال شرحها- ساعدت على استمرار الإحساس القبلي و على تكريسه بين الفئات الاجتماعية، فمن الطبيعي و قد رشح نفسه من خلال هذه القصيدة ليكون شاعر المنصور ألاّ يغيب عن ذهنه التحدّث عن هذا الجانب في شخصيته و يظهره واضحا للعيان على سبيل الاستدلال الضمني على أحقيّته في الملك، فإذا كان قد استأثر بالسلطة و جمع مقاليدها في يده فإن ذلك ليس اجتراء منه على ما لم يؤهله لَهُ ماضيه و حاضره، معنى ذلك أن وراء ظاهر اللفظ خطابًا آخر له علاقة بالأحداث السياسية و بالظروف التي وصل في أثنائها ممدوح الشاعر إلى هرم السلطة، فحجب صوته الأصوات الأخرى و أخرسها، فكأنّ ابن دراج في هذا الموضع كان يخاطب أموية الأندلس الذين ساءهم أن تنتقل السلطة الفعلية من أيدي العدنانية إلى أيدي أعدائهم التقليديين من اليمنية، فراح يحاجِجُهُم بالإرث الثقيل الذي يُسند المنصور و يدعم مترلته، و زاد هو مترلته تعزيزا بما أضافه إلى ذلك الإرث من فضائل و مناقب، لذلك أبرزه ابن دراج على أنه جوهرة عقد اليمانين و خلاصة معدنهم النفيس كما تنطق بذلك هائيته.

و إذا عدنا مرة أخرى إلى الأبيات المفردة للمدح في هذه القصيدة نفسها، فإننا نلاحظ أن ما تعلق منها بحاضر الممدوح يتصل كلّه بالعطاء و الجود، أمّـــا ما تعلق منه بالماضي فيدور حول عراقة النسب و الفروسية التي ورّثها إياه أجداده، و الأمجاد الشامخة التي بنوها لـــه. و يتبـــين من هذا أن معرفة الشاعر بالمنصور ما تزال في بدايتها، لذلك كان الغالب هنا هو الاقتصاد فيها اتصل بشخص الممدوح من فضائل و الاتجاه إلى التفصيل فيما له علاقة بما هو تاريخي مما يشكل جزءا من ثقافة ابن دراج. وإذا صَحَّ أن هذه القصيدة قد تكون لها بقيّة سقطت[32]، فمن المرجح أن تكون هذه البقية امتدادًا لاستعراض مفاخر أجداد الممدوح و فضائلهم التي درج الشعراء الأقدمون على جعلها ينبوعا دائم التدفق ، يستمد منه الممدوح الأمجاد و المفاخر التي يُعزِّزُ بها حاضره، فهي كالسّلاح الذي يشهره في وجه خصومه و كالرصيد المعنوي الذي يعزز به ثقته في نفسه.

على ضوء الملاحظات السابقة يمكننا القول ، إن ابن دراج لم يرتبط في هذه القصيدة ارتباطا شديدا بواقع ممدوحه الذي كان يومئذٍ مُتَمَوِّجًا بالأحداث مَوَّارًا بها، لكن ما أن تتوطد صلته بابن أبي عامر حتى يصبح شعره بمنزلة «الشاشة» التي تنعكس عليها كلّ ما تقع عليه عينه أو يقرع سمعه من وقائع و أحداث مما له علاقة بالمنصور. و إذا كان غير متيـــسر في مثل هذه العجالة استعراض كل ما ضمَّه ديوان القسطلي من قصائد و مقطوعات في الحاجب العامري، و هي كثيرة، غير ما يكون قد

ضاع أو ذهب في خروم النسخة المخطوطة، كما ذكرنا من قبل، فإننا سننتخب منها بعض النماذج نمثل بها لما نحن فيه. و الأمثلة الأولى التي نختارها لهذا الغرض، بعد تلك التي توقفنا عندها، نستقيها من القصيدة التي حبَّرها الشاعر في المنصور يوم أن وفد عليه شانجة بن غريسة ثالث ملوك البشكونس في مملكة نبارة[33]، زائرا مستصرخا على حدِّ تعبير ابن الخطيب، يُحَكِّمُه في نفسه و يُعلن خضوعه له و دخوله في طاعته؛ ذلك لأن هذا الملك كان قد جَدَّد عهود الخضوع للحكم المستنصر، و لكنه نكثها، فنقل إليه الحكم ثم المنصور بعده رحى الحرب فأذاقه فيها الصَّب و الصَبَر. ولما ضاقت به السُّبُل. لم يجد بدّا من العودة إلى الجادة و تجديد العهد مع قرطبة, فاستقبله المنصور استقبالا فخما, و كان ذلك عام 382هـ, و هي السنة التي ارتبط فيها القسطلي ببلاط ابن أبي عامر, فكان هذا الحدث الذي أفاض في وصفه ابن الخطيب[34], مناسبة جليلة حركت شيطان الشعر في نفس ابن دراج فخلدها بقصيدة بدأها بقوله[35]:

ألا هكذا فليسم للمجد من سما و يحم ذمار الملـــك من حمـــى

و إلاّ «فللمنصور» غايات ما شآ إليه بني الدنيا و أغراض من رمى

منذ البيت الأول نرى كيف يقدم ابن دراج ممدوحه على أنه المثل أو الأنموذج الفريد الذي ينبغي أن يترسم خطاه من كانت غايته بلوغ ذرا المجد التي أجملها ابتداء في حماية الملك و نصرة الدين، و نلحظ أنَّ هذين العنصرين اللذين سيشكلان المركز الذي ستنصَبُّ فيه بقية

أبيات القصيدة غير مفصولين عن السياق التاريخي الذي ألمحنا إليه: فعهد المنصورين بن أبي عامر، لاسيما في أيامه الأولى، مثّل مرحلة تسوّر الدول المسيحية المجاورة على دولة الإسلام في الأندلس، الأمر الذي حمل الحاجب العامري على أن يجعل أولى أهدافه حماية الدولـــة و الدين، بنقل رحى الحرب إلى أراضي المعتدين، فغادر أهلها «صرعى البقاع و تركهم أذل من وتد بقاع ، ووالى على بلادهم الوقائع، و سدَّدَ إلى أكبادهم سهام الفجائع، و أغَصَّ بالحمام أرواحهم و نغَّصَ بتلك الآلام بكورهم و رواحهم»[36]، مثلما أوردنا ذلك من قبل نقلاً عن المقّري في النفح. و من الطبيعي وقد جعل المنصور غايته الأولى دفع الأذى عن الدولة و الدين أنْ يُلقِي بالدنيا وراء ظهره و يَصُبَّ كل جهده في درك هذه الغاية التي تمثل بالنسبة إليه العلق النفيس الذي جرَّد سيفه لحمايته، غير مبالٍ بالأخطار التي تتربص به في كلّ منعطف، و لا بالموت الذي يترصد خطاه؛ فهمَّتُه القعساء هوَّنت على نفسه الرَّدى و «مستعظم الهول» الذي ترتعد له فرائس صغار النفوس المتعلقين بصغائر الدنيا, خلافًا للمنصور الذي علقت نفسه «أوجه المجد»، فأضحى بها «صبًّا متيمًا»، فأغنته عن التلفت لما يتلفت إليه الناس من متع عابرة، فابن أبي عامر بهذا المعنى عاشق ولهان لكن معشوقه الذي سلب عليه لُبَّه و ملأ قلبه فأمتلكه ليس امرأة من لحم و دم، إنّما هو ما كان أعلنه الشاعر في البيت الأول، أي حماية «ذمار الملك و الدين»، فهما محبوبه الذي تيمه فاختزل الدنيا فيه و لم يَعُد يرى لنفسه غاية سواه تستأهل أن يسترخص لها مُهجته أو يركب من أجلها الأهوال[37]:

و حَقٍّ لِمن لاقى فأقدم سَيْفُـهُ على غمرات الموت أن يتقدَّمَا

و من حقرت مستعظم الهول نفسه إذا الخيلُ كرَّت أن يكون المعظَّما

و من ملَّ أُنس المال حتى تحكَّمت على ما حَوَت كفَّاه أن يُتَحَكَّما

و من حمتِ العلقَ النفيس سيوفه من الضيم أن تختار مُرتَعَ الحما

و من تيَّمته أوجُهُ المجد أن يرى و قلبُ العلا صَبًّا إليه متيمـــا

إن السِّمة الرئيسة للمنصور في الأبيات هي التميّز عن الخلق في ما يعشقون، فهو على هذا من معدنٍ فريد لا يضاهيه في ذلك أي مخلوقٍ، و هذا المعنى يلتقي مع معنى الفرادة الذي أسبغَهُ عليه في القصيدة السابقة حين جعله واسطة العقد و لُبَّابٍ في قومٍ بلغوا سدرة المنتهى مجدا و حسبا و نسبا.

و نعتقد أنه حين جعله واحدا لا شريك له في المهمة التي انتدب إليها نفسه, إنما كان يحتجّ له ضدّ من عانده و زاحمه ممن نفسوا عليه مترلته أو رأوا أنه تجاوز الحدّ في القبض على السلطة و الاستيلاء على الدولة. و كيما يتجاوز مجرد الكلام عمّا كان قدّمه عن همّة ممدوحه و طموحه البعيد الغاية و الذي أوجزه في قوله[38]:

و لله يا «منصـــور» آراؤك التي بنيت بها نحو الكواكب سلّما

نقول, كيما يتجاوز ذلك راح يعطي البيان و الحجة المفحمة من الواقع الذي يعرفه الناس و الذي لا يستطيعون نكرانه, لذلك نراه بعد البيت الذي أثبتناه يخرج للتحدث عن شانجة نفسه مركزا في بادئ الأمر على ما يبرز مترلته و عظمته في قومه, فإذا هو[39]:

سليل ملوك الكفر في ذروة السّنا و وارث ملك الروم أقدم أقدما

توسّط أنساب القياصر فانتمى من الصيد و الأملاك أقرب منتمى

إن إبراز القسطلّي هذه الجوانب من شخصية شانجة ذو علاقة بالمقام الأسمى الذي أراد أن يجلس فيه المنصور, و بما كان ذكره قبلا من قدرته على تحقيق طموحاته التي بلغت عنان السماء, فهذا الملك الذي يجره خلفه تاريخا عريقا و مجدا مؤثلا, لم يجد بدّا من الخنوع و الخضوع لإرادة المنصور, فجاءه صاغرا ذليلا فوقف بين يديه مثلما يقف العبد بين يدي سيده خاضعا مطيعا, و لم يغنه اليوم ملكه الشامخ و لا مجده العريق, فقد تضعضع كل ذلك و تهاوى و غدا خرابا بلقعا كأن لم يغن بالأمس أمام ملك المنصور و مجده و مضاء عزمه و إرادته التي لا تفل و لا تقهر, فملك البشكنش لم يلق إليه بيده و هو صاغر إلاّ بعد أن خبر قوته و صلابة عزمه التي لا تنثني و لا تنحني, فهو يمضي إلى غايته دون وجل أو خوف مهما كانت العقبات شدادا, لأن نفسه قد «حقرت مستعظم الهول». و المعنى المضمر الذي يسفر لنا عن وجهه بعد المقابلة بين مكانة شانجة بين قومه و بين حاله و قد مثل بين يدي المنصور هو أيضا معنى الفرادة الذي ألمحنا إليه, فابن أبي عامر نسيج وحده في دنيا الملوك, فليس هناك من يشبهه أو يضاهيه, فالملوك مهما سمت منازلهم و تعالت, و مهما ثقل الإرث الذي يقف وراءهم أو يدعمهم فإنّهم صغار, أقزام أمامه, لا يملكون إلاّ أن يسمعوا و يطيعوا و يأتمروا بما قرّر و أمر, مثلما هي حال «عظيم الشرك» شانجة —كما أسماه– الذي جاء خاضعا ذليلا يحكّمه في

نفسه و ينشد لديه الحياة الآمنة و النجاة من الردى متخليا عن هيبة الملوك و كبريائهم يجرّ معه نفسا تسربلت بثوب الذل و الهوان , لا حول له و لا طول. لكن هذا الملك الذي جاء المنصور خاضعا ذليلا لم يجد منه إلاّ الإحسان و الكرم, فهو إذ أذاقه نار الحرب في عقر داره عقابا له و تأديبا على نقضه العهد, فإنه حين مثل بين يديه خانعا منكسرا, أحاطه بفضله و أسبغ عليه وافر نعمه, و منّ عليه بعفوه و عطفه. هكذا تلتقي في شخص المنصور صفتان تبدوان في الظاهر متناقضتين, و لكنهما في الجوهر متكاملتان, فهو شديد على العدوّ يذيقه أنكى الهزائم و أمرّها, يدوس أرضه و يدكّ حصونه بخيله و يحتز رقابه بسيوفه و ينشر الذعر و الرعب في بلاده, و لكنه إذا جاءه تائبا نادما على ما فرط منه, فإنه يجد عنده الصدر الرحب و القلب الرحيم الذي يقبل التوبة فيصفح عن الجاني و يرد إليه كرامته و يلبسه ثوب العز, بعد أن كساه لباس الذل و الخوف, قال ابن دراج[41]:

لئن سمته البأســـاء في عقـــر داره لقد عضته في دار ملكك أنعمـــا
لئن خاض في استقبالك الجود و الندى لقد خاض في آثارك النقع والدّما
بسطت له أمنا و قد بسط القنـــا ثرى أرضه من هلّها بك أعظما

وقد راح يؤكد في أبيات أخرى غير هذه على سمتي الشدة و الحزم من ناحية و على الرأفة و اللطف من ناحية ثانية عند المنصور, و هما سمتان لا تدلان على تناقض ما في شخصيته, فلكل منهما مقامها و سياقها عنده, لأن ابن أبي عامر يحسن تقدير المواقف فيلبس لكل منهما اللبوس الذي

يناسبه, و حسن التقدير هنا سمة من سمات رجاحة العقل و كماله, و هو المعنى الذي ينبثق من السلوك الذي سلكه المنصور في الموقفين اللذين وضعه فيهما الشاعر. و هذا المعنى يدخل في عداد الخصال التي كانت تمدح بها الملوك, سوى إننا نعتقد أن إلحاح ابن دراج على ثنائية الضراوة و الرأفة كان هدفه منه الكشف عن البعد الإنساني في شخصية ممدوحه, فالتركيز على البطش و الفتك و حدهما قد يبديه أقرب إلى الوحش الذي يجهز على فريسته فيمزقها شرّ ممزق, لذلك حرص الشاعر على أن يضفي عليه بعدا آخر يلحقه بالأناسي, بل بأخصّ خاصتهم الذين يعفون على الجاني عند المقدرة و يشملونه بكرمهم, و هم إذ يصنعون ما يصنعون فكأنهم يهبون له الحياة مجددا في موقف يكون مصيره بأيديهم, و إتلاف روحه أو إحياؤها رهن إشارتهم, و بذلك يكون ابن دراج قد نفى عن المنصور أن يكون من سفاكي الدماء, ليجعل منه شخصا نصيرا للحياة مؤثرا لها على الموت و الفناء, و الموقف الذي قدمه للموكب الرهيب الذي استقبل به الملك البشكنشي يؤكد الفكرة التي أشرنا إليها, لأن المشهد الذي أبرز فيه الشاعر جيش المنصور عددا و عدة يوحي بالرعب و يثير الفرق و الإحساس بدنوّ الأجل في النفوس, فقد جاء وصف هذا المشهد كما يلي[42]:

جنودٌ كأنَّ الأرض من لمعانها ... بروق تلاَلاَ أو حريق تضَرَّما

سحابٌ من البيض الخوافق قد علا ... وبحرٌ من السَّرد المضاعف قد طمى

بكلِّ كمِّي عامريّ كأنَّما ... تسربل من شمس الضحى وتعمّها

فجاء وقيد الرَّوع يقصر خطــوَه ويمتد في حبل الخضوع تقــدمــا

يخاطب عن رعب و إن كان مفصحا ويُفصحُ عن ذعرٍ و إن كان أعجما

إذا راعَهُ هــول الجنــد فأحجمــا تداركــه ذكــرى رِضاك فأقدما

إن ما سيتحقق في خاتمة المطاف، كما يوحي البيت الأخير في المجموعة هو النجاة و انتصار الأمان على الخوف، و الحياة على الموت، فالهول الذي أثاره مشهد الجيش العامري لطّفه رضا المنصور الذي ضمن الأمان للملك المُروَّع، فعادت نفسه إلى مستقرها، و بذلك يكون القسطلي قد ارتقى بممدوحه إلى أعلى المراتب في إنسانيته من حيث حِرصه على حياة الآخرين و أرواحهم، سواء في ذلك رعيته و أعداؤه حين يعدلون عن عصيانهم و يتوبون إلى رشدهم. و قد تولد من هذا المعنى معنى آخر ذو بُعدٍ أخلاقي له علاقة بالتربية و التهذيب، فابن دراج جعل ممدوحه هنا مثله مثل المعلم الذي يسترشد به الآخرون في حياتهم و يتولى هو تأديبهم و تقويم المعوج من سلوكهم، و هو المعنى الذي يؤديه قوله[43]:

رمى نفسه قسرًا إلى الملك الــذي رأى الدهر مملوكا له فتعلَّما

فإذا كان شانجة قد عاد إلى الصواب فلأنه رأى الدهر نفسه في قبضة ابن أبي عامر، فكان له ذلك درسا فَهِمَ منه أن العناد غير مجدٍ و أنه من الخطل الإصرارُ على تنكُّبِ جادة الصواب و المكوث في ضلاله القديم. وما دام تعليم الآخرين و تأديبهم مهمة من مهامه، فمعنى ذلك أن خبرته بالحياة أغنى من خبراتهم و حرصه على قيمها العليا أشد من حرصهم، وَ وَعْيُه بالمصلحة العامة أعمق من وعيهم. و هنا يضعنا الشاعر إزاء

شخصية هي المثل الأعلى للقيم التي يجب أن يأخذها بها الناس أنفسهم، لأن المعلم بمفهومه العام في الثقافة العربية الإسلامية التي تمثل مرجعية ابن دراج هو نموذج الكمال العلمي والأخلاقي، فهو الذي يمتلك المعرفة و منظومة القيم السلوكية. هكذا نرى مرة أخرى تأكيده على معنى الفرادة و التميّز لدى ممدوحه.

إن العودة إلى الأمثلة التي سقناها تبيّن بوضوح أن المنصور أضحى بالنسبة إلى شاعرنا المثل الأعلى و البطل الذي ملكـــ عليه نفسه و ملأ جوانحه إعجابا, فلم يعد يرى من يضارعه في فرادته. فعلى الناس إذا أن يسيروا خلفه و أن يهتدوا بهديه, فهو الإمام الذي يرسم لهم طريق سيرهم, فمن خالفه و تنكّب نهجه ضلّ و استحق التقويم و التأديب, كما حدث لشانجة الذي زلّت به القدم فعالجه المنصور بما يناسب جريرته, فجاءه طائعا خاضعا تائبا نادما على ما فرط منه كما رأينا. و يتواصل التوكيد على فرادة شخصية ابن أبي عامر حتى ليبدو و كأنّي به المركز أمّا غيره فيمثل الهامش, أو قل إنه المتربع على عرش الملوكية في الدنيا الذي تشرئب إليه أعناق الأمم التي يراقبها من عليائه أينما كانت, و لولا خشية السقوط في المبالغة لقلنا إن ابن دراج أراد أن يجعل من ممدوحه ظل الله في أرضه, لأن مثل الاستسلام و الخضوع للمنصور اللذين تناولهما في ميميته مثلا يذكران بعلاقة المولى تعالى جلت قدرته بعبيده, لاسيما أن الشاعر يعمم الخضوع و استرهان النفوس لابن أبي عامر على أمم الأرض

و ملوكها قاطبة, فالكل و من دون استثناء واقع تحت حكمه و لا يملك أحد منهم أن يعصي له أمرا أو كما قال(44):

جاءتك خاضعة أعناقها الأمـــم مستسلـــمين لما تمضـــي و تحتـــكم

و استرهنتك ملوك الأرض أنفسها ما استنفد البأس أو ما استدرك الكرم

فالمنصور يبدو دوما في مثل هذه الحال –عند ابن دراج– مالكا زمام النفوس لا يجرأ الخلق على مخالفته أو عصيان أوامره, لأنهم يعلمون أن عاقبة أمرهم إليه, و لا مفرّ منه إلاّ إليه كما تعبّر عن ذلك لامية القسطلّي التي استهلها كما يلي(45):

إليك منك فرار الخائف الوجل و في يديك أمان الفارس البطل

تقابلت نحوك الآفاق و اجتمعت على يمينك شتّى الطّرق و السّبل

و يمّمتك ملوك الأرض معلمـــة إليك نصّ نجاء الخيـــل و الإبل

إن المنصور في المعادلة التي رسمتها هذه اللاّمية يمثل الطرف المهيمن, بينما يمثل الملوك الآخرون الطرف المهيمن عليه, و قدرة الطرف الأول قدرة مطلقة لا تضاهيها أية قدرة بشرية, و إلاّ ما كان لتنقاد له « أعنّة الملك و الأيام و الدول», و ما كان ليرضخ لإرادته «الدهر و الأديان و الملل», فابن أبي عامر على هذا نسيج وحده بين بني البشر فيما مُنِحَهُ من سلطانٍ و قوةٍ خارقة, فأضحى الخلق له تبعا, فكأنّي بالشاعر أراد أن يقدمه لنا و كأنه كائن قُدَّ من معدن فريد أو كأنّ صورته في ذهن ابن دراج انطبعت كذلك, فالعلاقة بين المنصور والآخرين في هذه االلامية أشبه ما تكون بعلاقة الخالق تعالى بمخلوقاته يَوْمَ حَصْحَصَةِ الحق و عودة

الكلمة لله وحده ليقرر ما يشاء, فعناصر مشهد القيامة في هذه القصيدة يمكن تحديدها بيسر, فهناك المنصور صاحب السلطة القاهرة الذي يظهر كالمتربع على العرش, و هناك الخليقة التي هرعت إليه من كل حدب وصوب مهرولة يملأ نفوسها الخوف من عقابه و الرجاء في عفوه وأمانه,و هنا يظهر شانجة كأحد المذنبين الذين يتقدمون يوم القيامة بين يدي الله عزّ و جلّ معترفين له بذنوبهم و يرجونه أن يتجاوز عن سيئاتهم و يقيهم عذابه الذي لا ريب فيه, مبتهلا للمنصور يرجوه أن يصفح عنه. و هذا الموقف يذكرنا بموقف الذهول الّذي يكون عليه الناس يوم الحساب. و بانصراف العبد عن التفكير حتى في أقرب المقربين إليه من زوج و ولد, و يرينا الشاعر أشياع شانجة مسوقين لإنفاذ الحكم فيهم مثلما يساق الذين كفروا يوم القيامة إلى جهنّم زمرا مستسلمين لما قضاه الله من أمر كما جاء في الذكر الحكيم[46]. و مثلما تبقى ثقة المرء في رحمة ربّه قائمة مهما كثرت ذنوبه أو كبرت, فإن أتباع شانجة هم الآخرون و إن كانوا لا يملكون أن يجادلوا المنصور فيما قرره, فإنهم لا يقطعون الأمل في عفوه.

على هذا النحو نرى بوضوح,كيف جاء مدح ابن دراج في هذا الموطن مبطنا بمبالغات شديدة في إجلال المنصور حتى ليمكننا القول إن ابن أبي عامر في مخيال القسطلي شخصية خارقة لها من الصفات ما ليس للآدميين. و نعتقد أن هذه المعاني التي صاغ منها شخصية ممدوحه ليست خاصة بالمواقف المتعلقة باستعراض قوة الدولة و هيبتها في مثل المناسبات التي عرضنا نماذج من شعر ابن دراج فيها, إنما هي ظاهرة تنسحب

على قصائده الأخرى في المنصور. فشاعرنا و إن لم ينته به الأمر إلى ما انتهى إليه ابن هاني في مدح المعز لدين الله الفاطمي, فإنه كان يتجاوز في بعض المواقف الحدود التي كان يلتزم بها الشعراء الأقدمون في المدح, فلننظر كيف يمتح معانيه من معين ديني ليفتح لنفسه الطريق لجعل ممدوحه يتلقى نصره و تأييده من الله عزّ و جلّ, فهو الذي يقضي له بقهر حزب الضلال, و الأقدار هي التي تحكم له بقهر الملوك, معنى ذلك أن نصره قدر مقدور لا تقوى قوة بشرية على حبسه أو على تغيير مجراه, و ما دام الأمر كذلك, فإن تأييد الله يتبعه أينما حلّ و يسير حيث يسير, فعزمه و إرادته من إرادة الرحمن, و جيشه الذي يدك به حصون الشرك هو جيشه أيضا كما يقول ابن دراج تصريحا, و هذه طائفة من الأبيات ننتخبها من قصيدته التي شيّع بها المنصور و قد خرج غازيا, نستشهد بها على ما قدمنا, قال في هذه المناسبة[47]:

سر سار صنع الله حيث تسير ... قدما و ساعد عزمك المقدور

و وصلت موصولا ببغيتك المنى ... و مسيرا لمرادك التيسير

و أعاد عادات جرت لك بالمنى ... ربّ على أضعافهن قدير

فالسعد بالنصر العزيز محبر ... و اليمن بالفتح المبين بشير

حكمت لك الأقدار أنك باهر ... ملك الملوك و أنه مبهور

و قضى لك الرحمن أنك قاهر ... حزب الضلال و أنه مقهور

فانهض بحزب الله يقدم جمعه ... حفظ الإله و سعيك المشكور

فإذا كانت الأبيات الأولى في هذا المجموع جاءت على سبيل الدعاء, فإن الشاعر بدءا من البيت الرابع أخذ يقرر معانيه تقريرا حتى لكأنّ ما وقع واقع لا محالة حتى قبل حدوثه, و ما ذلك إلاّ لأن النصر هنا لا دخل فيه لإرادة البشر إنما هي الإرادة الإلهية التي تصرّف الأمور كيف تشاء, وهي التي تتولى قيادة الأحداث من خلال حزب الله الذي لا يغلب, فكأنّي بابن دراج يستوحي قوله عزّ وجلّ « ومن يتولى الله و رسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون»[48], فالعناية الإلهية, على هذا, هي التي تتولى المنصور, و لا فضل لأي كان فيما حققه و سيحققه من فتوح و انتصارات على أهل الشرك الذين قضت إرادة الرحمن لممدوح القسطلي أن يخيب مسعاهم و أن يجرعهم أمرّ الهزائم, لذلك عندما يتحدث عن مناقبه فإنه يجعلها مناقب متفردة لا يشركه فيها بشر حتى لتعزّ الإحاطة بها أو كما قال[49]:

متفرّد بمناقب متقاصر عن كنهها المنظوم و المنثور

فماذا يمكن أن تكون هذه المناقب التي تجلّ عن الوصف و الحصر غير مناقب مستمدة من صفات الله التي تعيي بل تعجز من يروم تحديدها، فهي كالنور الشديد الذي إذا حَدَّقت فيه و أنعمت النظر، انقلب إليك بصرك « خاسئا و هو حسير» [50]، فهي إذا مناقبُ تسمو عما هو موجود مما يمكن أن تحدَّه مدارك الإنسان كيفما كانت قوتها، لأن لا مرجع لها في واقع الناس، فتصورها لا يكون إلاّ تخيلا و وهْمًا، لأنها داخلـــة في المطلق الذي لا مثل للأذهان عنه، و الذي كلما حاولت الاقتراب منه وقعت دونه و قَصَرت عن درك جوهره، فهل يسمح لنا هذا

القول، إن ابن دراج يميل في مدحه إلى تأليه ممدوحه أو بالأحرى يجعله شريكا للّـــه تعالى في بعض صفات ذاته ؟

إن شرعية هذا التساؤل تؤكدها بعض القرائن التي يقدمها لنا شعره في ابن أبي عامر، و هي قرائن قد تساعد على الإجابة بالإثبات عن السؤال السابق. فإذا كان المولى عزَّ و جل قد جعل النور سمة من سماته في قوله تعالى: « اللّه نـــــور السموات والأرض، مثل نـــــوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب ذري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء، و لو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم»[51]، فإننا نلاحظ أن ابن دراج كثير العودة إلى معجم النور في بعض قصائده في المنصور حتى جعل النور سمة من السمات الملازمة له، من ذلك قوله في قصيدة حائية مدحه بها[52]:

تبلّج عن إشراق غرّتك الصبـــح و أسفر عن إقدامك النصر والفتح
و قرّت عيون المسلمين بأوبـــة مصادرها عزّ و موردها نجح
وكأنّ شعاع الشمس من نور هديها و عرف نسيم الروض من طيبها نفح
و روّيت من ماء الجماجم و الطلى متون جياد شفها الظمأ الترح
بوارق ما أومضن عنك لناكـــث فأخلف من سقيا دم ديمة تسحو
صفائح أعداها سناك فأشرقـــت و لم يعدهنّ العفو منك و لا الصفح
سريت لهم بالخيل في ظلّ غيهـــب من الليل ما يطوى عليك له كشح
تقابل فيه البدر و البدر و القنـــــا و زهر نجوم الليل و الجنح و الجنح

و بيعة»شنت اقروج» أوريت فوقها سنا لهب فيه لعميائها شـــــرح

و كان لها الفصح الأجلّ فأصبحت لنارك فصحا ما لها بعده فصح

إن المعجم الدال على النور و ما له به علاقة في الأبيات التي عرضناها أوضح من أن يحتاج إلى بيان, فالألفاظ والعبارات التالية «تبلّج», «إشراق غرتك», «الصبح», «أسفر», «شعاع الشمس», «من نور هديها», «بوارق ما أومض», «سناك», «فأشرقت», «البدر», «زهر نجوم اليل», «سنا لهب», «فأصبحت لنارك فصحا», هذه الألفاظ والعبارات تحيل كلها على النور, و لا نعتقد أن الإكثار منها غير ذي دلالة, لاسيما أن المنصور في أغلبها قدم على أنه مصدر النور الذي يشع على العالم من حوله, نعمة و نقمة حسبما يقتضيه المقام. فالغالب على ظننا أن الشاعر يجعل من ممدوحه كائنا نورانيا, و لما كان النور يسمو عن التحديد, فإنه جعله كما رأينا يتفرد دون الأناسي بمناقب لا يحدها وصف, و ما دام كذلك فإنه من الطبيعي أن تكون نفسه «أنفس نفس في الورى»[53] كما جاء في الحائية التي انتخبنا منها الأبيات السابقة, وهذه النفس الغالية يجود بها بسخاء و دون تردد أو ندم في سبيل نصرة الدين و عزّته, وهنا يبرز بعد آخر في شخصية الممدوح و هو بعد ديني يتعلق بالتضحية بالغالي و النفيس ابتغاء مرضاة الله و أجره العظيم كما جاء في الذكر الحكيم[54], بمعنى إن قوة إيمانه بالله و طمعه في رضاه والظفر بما وعد به المخلصين الصادقين من عباده كل ذلك جعله يختار غير مكره التضحية بالنفس استجابة لنداء المولى عزّ و جلّ. و يمكننا أن نلمس في موقف

السماحة بالنفس من أجل غايات أسمى و أنبل حسن تقدير الممدوح للأمور, و لحسن التقدير علاقة بمعنى الحلم و رجاحة العقل, الذي أكثر العرب من التمدح به, و لكن ابن دراج لا يعطينا هذا المعنى سافرا إنما نستشفه مما وقع عليه اختيار ممدوحه في الموقف الصعب الذي وضعه فيه, فهذا الاختيار (السماحة بالنفس), ينبئ عن استجابة لنداء العقل و كتم رغبات النفس العاجلة و يدل على إيمان راسخ أن الآجلة خير و أبقى وأن ما في العاجلة نافد و فان مهما ترامى و كثر, مصداقا لقوله تعالى: «فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا و ما عند الله خير و أبقى للذين آمنوا و على ربّهم يتوكلون»(55).

نراه يعود إلى أمثال المعاني التي تعرضنا لها في غير ما قصيدة من قصائده في المنصور حتى ليخيل إلينا أن التداخل كان يقع بين الفينة و الأخرى في مخيلته بين شخصية بطله و بين المصطفى عليه الصلاة و السلام كما في قصيدته التي أنشأها بمناسبة حملة قادها المنصور إلى غرسية بن شانجة في بلاد البشكنس و منها هذه الأبيات(56):

و سيف محلى بالمكارم جفنه معودة نصر الإله مضاربـــــــه

إذا سله دين الهدى بكر الردى لديه يراعي أمره و يراقبـــــــه

تخيره الرحمن من سرو حمير فناضل عنه باتك الحد قاضيـــــه

مخلدة في الصالحين سماتـــــه وباقية في العالمين مناقـــــــــــه

حسام الإمام المصطفى وسنانه ومفزعه في المشكلات وحاجـــــه

هو القدر المحتوم من ذا يرده وسلطان رب العرش من ذا يغالبه؟

سما لعهد المشركين بعزمـــــه تداعت لها أركانه و جوانبـــــــه

وأخلفه الشيطان خادع وعده وأيقن أن الله عنك محاربـــــــــة

إن قارئ الأبيات لا يجد عنتا كبيرا في إدراك العلاقة بين ما تضمنته من معانٍ في مدح ابن أبي عامر وما يمكن أن يكون من المعاني خاصًا بأنبياء الله و بالمصطفى صلى الله عليه و سلم بوجه خاص، فحديث الشاعر عن اختيار المولى عز و جل المنصور «من سرو حمير» يعيد إلى الأذهان اختياره أنبياءه و رسله الذين كلفهم بتبليغ رسالاته، بل إن استخدام الفعل «تخيّر» بدلاً من الفعل «اختار» فيه إشارة إلى المبالغة في البحث و التنقيب ليكون الشخص الواقع عليه الاختيار هو خلاصة الخلاصة وجوهر الجوهر، لذلك كان من الطبيعي أن يجعل سمات هذا الممدوح «مخلّدة» بين الصالحين من الناس و مناقبه سائرة باقية في العالمين لا يأتي عليها البلى, و هنا أيضا تقفز إلى الذهن سير و خصال أنبياء الله و رسله التي يتخذها الصالحون من الناس منهجا في الحياة، معنى ذلك أن الشاعر يمنح ممدوحه صفة الخلود بمناقبه و خصاله مثلما خلدت أصفياء الله شيمهم و خلالهم. و ما دام قد رفعه إلى هذا المصفّ، فإنه من البديهي أن يجعله منصورا من الله في الحرب التي أعلنها على الشرك الذي تكون هزيمته في هذه الحال و حسب منطق الشاعر قدرًا محتوما «هو القدر المحتوم من ذا يرده ؟ «، فالله عز و جل هو الذي يعزز جانبه مثلما عزز رسله و نصرهم و كتب أن تكون الغلبة له و لهم « كتب الله لأغلبنّ أنا و رسلي، إنَّ الله قوي عزيز»[57]، من هذا المنظور الذي تبناه الشاعر لا يكون النصر مفاجئا، لأن صانعه هو الله، و من ذا يشكك في قدرة

الله و نفاذ إرادته ؟ أو كما قال ابن دراج «و سلطان رب العرش من ذا يغالبه ؟».

ونرى ابن دراج يردد في مواضع أخرى من القصيدة نفسها تدخل إرادة الله إلى جانب المنصور في محاربته حزب الشرك، بل يترك أحيانا الحديث عن ممدوحه جملة و يجعل الحرب حربا بين ممثل الشرك «غرسية» و بين الله، فكأن ضربا من التماهي في مثل هذه الحال يحدث في ذهن الشاعر بين بطله و بين الخالق تعالى، فيجعل الله ينوب عن المنصور كما في قوله[58]:

فلما رأي «غرسية» أنه الـــردى يقينا و أن الله لا شكـــــ غالبه

وأيقن أن الله صادق وعـــــــده وأن أماني الضلال كواذبـــــــه

وأخلفه الشيطان خادع وعـــــده وأيقن أن الله عنك محاربـــــــه

إن مثل هذه المعاني تشِفُّ عن امتلاء جوانح الشاعر إعجابا بمنجزات ممدوحه، فكاد تحت تأثير نشوة هذا الإعجاب الذي بلغ درجة الهيام بالبطل، أنه ينسى أن المنصور آدمي، لذلك لا يكاد يريكه يحارب خصومه مفردا بقوته أو بقدراته البشرية بل كثيرا ما يجعل السماء تعضده و تشد أزره في حروبه كما صنع في افتتاح قصيدته في تهنئة ابن أبي عامر بأسر ابن فرذلند، فقد قال[59]:

تناضل عنك أقدار السمـــاء وتبطش عن يديك يد القضاء

وما دامت « أقدار السماء» هي التي تناضل عنه و» يد القضاء» هي التي تبطش عن يديه، فإن قدرته ستكون من قدرة الله تعالى، ومثلما أن

المولى عزَّ وجلَّ يراقب كل صغيرة وكبيرة في الكون ولا يمكن لشيء فيه أن يخفى عنه أو يلفت من قبضته[60]، فإن قبضة المنصور هو الآخر على الدنيا محكمة، فهو يراقب فيها كل مكان حتى لا يمكن لأيٍّ كان مهما بعدت به الشقة أن ينجو منه إذا أراده ولو طار بنفسه في الهواء إمعانا في الهروب والاختفاء للإفلات من قدر محتوم هو رماح العامري التي تطلبه، وفي هذا المعنى يقول القسطلي[61]:

فما قصرت رماحـــك عن عدو و لو أعيا به أمد التنائـــــي
إذا أشرعتـــــها في إثر غـــــــــاو(فقد ضاقت) به سبيل النجاة
و لو طارت به (ألـــف عقـــــــاب يرمن) بنفسه خرق الهـــــواء
و أين يفـــــر عن درك المنايـــــــا و أين يشذ من تحت السماء؟

ألا نرى هنا أن قدرة المنصور قد تجاوزت حدود قدرات البشر وأضحت صنوا لقدرة الخالق تعالى الذي «لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات و لا في الأرض[62]».

إن ابن دراج وإن كان لا ينكر قدرة الله عز و جل على الفعل الذي ليس في مقدور البشر تغييره أو زعزعته، فإنه يرى لممدوحه قدرة مماثلة لقدرته على التصرف، لا لشيء لأنه يرى أن إرادته جزء من إرادة الله فيما يصنعه في الشرك و المشركين. و هذا الالتقاء بين الإرادتين، إرادة الله و إرادة المنصور، في ذهن الشاعر، هو ما رخص له أن يتصور تركيز ممدوحه دعائم ملكه في الأرض نظيرا لعمل الله الذي ألقى فيها رواسي ليثبتها حتى لا تميد بالناس[63]، قال ابن دراج من قصيدة مدح بها ابن أبي عامر[64]:

وأنت ركزت الملك في الأرض مثلما يثبت فيها ذو الجلال و ما يمحو

و لهذه القوة «الخارقة» التي مُنِحَها المنصور- كما قرّ في خلد الشاعر- علاقة بالرسالة التي حمل أمانة تبليغها و حمايتها، و التي لا نكاد نجد قصيدة له في المنصور خالية من الإشارة إليها، و هي الدفاع عن دين الله و حماية المتمسكين به، لذلك فإن الثنائية الضدية:الإيمان/الشرك دائمة الحضور في أغلب شعره الذي مدحه به، لذلك كان من الطبيعي ألا يريكه إلا متقفيا آثار الشرك و أتباعه لاستئصال شأفتهم و اجتثاث جذورهم من أصولها حتى لا تبقى لهم باقية(65).

ولا ينبغي أن نعتقد أن الأمجاد الحربية كانت السبب الوحيد في تعلق القسطلي بممدوحه، وأنه لم يجتذبه في شخص المنصور إلا ما عرف به من شجاعة و بسالة و ما امتلأ به سجله الحربي من أمجاد، فهذا الجانب كان حقا وراء الصورة التي نقشها لابن أبي عامر بأحرف من ذهب و التي تعبر عن تعلق وإعجاب شديدين بالممدوح، حتى ليكاد متأملها يوقن أن القسطلي استفرغ في نحت تمثال بطله كل جهده و لم يبق لديه ما يضيفه لها أو ما يذخره لغيره ممن سيتصل بهم بعد المنصور، و هو نفسه أحس أن صورة ممدوحه كما انطبعت في نفسه أثرى من أن يحيط بها لسانه وقلمه، فكأنها —كما تصورها- تجل عن الضبط و التحديد(66):

لانظم أشعاري و لا نثري و لا صحفي و لا جهد اللسان و لا القلم

مما يقوم بنشر أيسر ما طـــوى صدري من الإخلاص فيك و ما كتم

بالإضافة إلى هذا الجانب البطولي الذي جعله يضفي على شخص المنصور صفة عجائبية، هناك جانب آخر مكمل لهذا أشرنا إليه في قراءتنا قصيدته الأولى في ابن عامر، و هو ما وجده إلى جواره من راحة مادية كفته شر الفاقة التي كانت تتهدد عياله، لذلك فإن ابن دراج كان يرى في ممدوحه المنقذ الفادي الذي انتشله من أنياب الفقر و أبعد عنه وعن أهله شبح الموت الذي كان يترصدهم، مثلما أبعد عن الأندلسيين أنفسهم ما كان يترقبهم من أخطار جيرانهم كما رأينا، و هنا نلاحظ أن العطاء المادي الجزيل الذي اتصف به العامري لم يعد محض كرم و سخاء في نظر الشاعر إنما أضحى عنصرا من عناصر البطولة و النضال المستمر لحماية الرعية و ضمان أمنها، فإذا كان العدو في الصورة الأولى للبطولة بشرا، فإنه في هذه المرة صروف الدهر و غوائله التي كانت تتربص بابن دراج نفسه الدوائر، فانتدب المنصور نفسه لمنازلتها فألقت إليه هي الأخرى بأيدي الذل، قال في هذا المعنى[67]:

فتى أذعن الدهر الأبي لحكمه فأضحى إليه ملقيا بالمقالـــد

لذلك حق للقسطلي أن يرى فيه ملاذا من سهام الدهر و ضرباته ومأمنا من الخطوب و فواجعها، قال[68]:

ملاذنا من صروف الدهر إن طرقت دهما و مفزعنا في الخطب إن قدحا

و قال في قصيدة أخرى يمدحه فيها[69]:

وجود تناهى في الخلائق و انتهـــت إلى (حاتم) في الأكرمين مناسبـــــه

تقضت رجاء الراغبين سجالـــــه و عمت كما عم الغمام مواهـــبه

و ملجأ أمْن المستضام و معقـــل كفى الدهر هو حتى ما تنوب نوائبه

صحيح إن المعاني التي استخدمها القسطلي إذا نظرنا إليها مفردة وجدنا كثيرا مما يماثلها في المدح التقليدي، لكننا إذا تأملنا ها في الإطار الذي وظفت فيه بدا لنا أن الأمر لا يتعلق بترديد أو إعادة إنتاج معان رسخت في تقاليد شعر المدح عند العرب، فسياق الأبيات يبرز صراعا بين قوتين: قوة الدهر التي قهرت الناس و قوة العامري المنافحة عنهم لتفريخ روعهم و التنفيس عن كربهم، و حسب سياق الأبيات دائما، فإن الصراع حسم بانتصار الممدوح على الدهر و ظهوره عليه، أي انتصار الحياة على الموت الذي يتهدد هؤلاء المكروبين، معنى ذلك أن الكرم في السياق الذي يتحدث فيه ابن دراج ليس عطاء من أجل العطاء أو للإبانة عن شيمة راسخة لدى الممدوح و كفى، إنما يتنزل في إطار الحرب التي أعلنها المنصور على كل ما يتهدد حياة الناس و ينغصها و يربك على الخلق وجودهم، فغاية المنصور —في مخيال ابن دراج– غاية واحدة في جميع الأحوال، و هي الانتصار للحياة بدلالتها الشاملة بالسهر على إعادة ترتيب عناصرها سواء في حربه على الشرك و المشركين انتصارا لدين الله أم في جبره أحوال الناس بما يكفيهم شر الفاقة و يدفع عنهم شج العدم.

ما كان لابن دراج أن يترك صورة ممدوحه منقوصة من صفة العلم الذي كانت سوقه نافقة في الأندلس يومئذ، خاصة أن المنصور نفسه كان له إسهام وافر في تنشيط الحركة الثقافية في هذا العهد، فمجالسه الأدبية كان يغشاها الأدباء و الشعراء و العلماء فكانت تجري بينهم مناظرات

في مسائل أدبية و لغوية، و لم يكن ابن أبي عامر في هذه اللقاءات مجرد شاهد أو متفرج في ما كان يجري فيها من مناقشات و مباحثات، إنما كان يدلي بدلائه فيها، لذلك لم يكن ابن دراج و هو يمدحه براعية العلم و الشعر إلا معبرا عن واقع كان فيه شاهدا كما في قوله[70]:

فحق للعلم أن يزهى به فرحا و حق للشعر أن يشدو به طربا

ولكن عدا هذا البيت الذي تضمنته قصيدته التي أنشدها في المجلس الذي اختبره فيه المنصور فنصره على خصومه الذين نسبوه إلى سرقة الشعر و انتحاله، لا نجد في ديوانه الموجود بين أيدينا مدحا آخر صريحا لهذا الجانب في شخص ابن أبي عامر، مع أن مؤرخي الأدب المغاربة و الأندلسيين كابن عذاري و ابن بسام و المقري و غيرهم يتحدثون بوضوح عن شخصيته الثقافية، و نظن ظنا أن طغيان الجانب الحربي الجهادي لديه و الذي أبرزه بطلا «أسطوريا» عديم القرين في زمانه، إلى جانب سخائه الذي كاد يتحول هو الآخر أسطورة من أساطير عصره، كانا مما غطّى على الجوانب الأخرى في شخصيته كما صورها لنا ابن دراج.

إذا عدنا إلى تأمل شخصية المنصور على النحو الذي رسمت به في شعر القسطلي وجدنا عنصرين رئيسيين تظافرا في تكوينها أولهما تاريخي يتعلق بما ورثه المنصور عن أجداده الأقدمين من مناقب و شيم،و ثانيهما ديني نلخصه في العناية الربانية التي ترافقه أينما حل. في ما يخص العنصر الأول، نلاحظ أن الشاعر يعود إليه لا ليجعل منه بديلا عن الحاضر، إنما يحييه ليفسر به حاضر الممدوح و حاضر الأمة في الوقت نفسه، فالتاريخ

كما تجلّى في مدحه المنصور يبدو حلقات متصلة يفسر سابقها لاحقها، فالمنصور إذا كان قد بلغ ما بلغه من سلطان فلأن وراءه إرثا من الماضي ثقيل، و هذا الماضي في نظر ابن دراج هو الحجة الدامغة على قيام الحاضر بالصورة التي هو قائم عليها، و بذلك يغدو التاريخ حركة متصلة لا انقطاع فيها، فاتصال ماضي الأسلاف بالحاضر متحقق من خلال المنصور نفسه. و الشاعر بتركيزه على البعد التاريخي في شخصية بطله إنما كان يهدف —كما ألمحنا من قبل– إلى دحض حجة أموية الأندلس و أنصارهم الذين كانوا يرون في الحاجب المنصور مغتصبا للحكم من بين أيدي أهله الشرعيين.

أما العنصر الثاني فهو ديني، فبطل ابن دراج —كما يبدو في الظاهر– يعيش الواقع الحي و يصنع أحداثه، سوى إن ذلك حسب البعد الديني في شخصيته كما تمثلها القسطلي كان يتحقق له لا بوصفه كائنا بشريا مثله مثل غيره من الخلق، إنما لأنه محاط برعاية المولى عز و جل الذي رأينا الشاعر يماهي –أحيانا– صفات بطله بصفاته و بصفات أنبياء الله تعالى، و الإلحاح على هذا العنصر في شخصية الممدوح يؤدي إلى القول إن موجه الأحداث ليس هو المنصور من حيث هو إنسان إنما المولى تعالى جلت قدرته هو الذي كان يصرفها كيف يشاء، وإذا كان الأمر كذلك فهل يبقى مجال للحديث عن البطولة؟

الحقيقة إن القسطلي من حيث لا يدري كان يترع عن المنصور «الآدمي» صفة البطولة، لأن البطل الحقيقي هو الذي يخوض في الأهوال

من أجل غاية مقدسة من دون أن تكون له ضمانات مسبقة بمآل الأمور، أما ابن أبي عامر كما قدمه شاعره فإنه أشبه ما يكون بأبطال الملحمة الإغريقية الذين كانوا يُقَدمون على أنهم آلهة أو أنصاف آلهة يتمتعون بقدرات خارقة، لكن حتى في هذه الحالة فإن التشبيه يبدو غير مطابق، لأن الصراع عند الإغريق في مثل هذه الأحوال كان يجري بين الآلهة أي بين قوى متكافئة و يكون البشر ضحية لتروات هذه الآلهة أما في حالة ابن دراج فإن بطله الذي يرعاه الحي القيوم، ينازل بشرا غير معززين بأية قوى خارقة، فالصراع على هذا غير متكافئ من ثمَّ يغدو البعد الإنساني عند بطله محل تساؤل، فهل تعوض الصفات الإنسانية التي نسبها إليه و المشاهد التي أبرزه فيها و التي تبعث الذعر في خصومه الجوهر الإنساني الذي سلبه منه؟

الهـــوامـــش:

1 - ابن عذاري، البيان المغرب في أهل الأندلس و المغرب تح ومراجعةج.س.كولان و إ.لفي بروفنسال، ط .3. دار الثقافة، بيروت 2/273.

2 -حسين مؤنس، معالم تاريخ الأندلس ط: 1، القاهرة 1980 ص303 .

3 -المقري أحمد بن محمد التلمساني نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح إحسان عباس، بيروت، دار صادر 1/402-403 .

4 -لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلامن ملوك الإسلام، تح إ. لفي بروفنسال، بيروت 1956، 2/77، و راجع تفاصيل ذلك عند المقري، نفح الطيب 1/396-397 .

5 -الحميدي، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس تح، إبراهيم الأبياري ط 2، دار الكتاب اللبناني بيروت 1983 ص 177.

6 -الحميدي، جذوة المقتبس.ص 179 .

7 -ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح الدكتور إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس، 1975، القسم الأول المجلد الأول من 59-60.

8 -ابن بسام الذخيرة ق 1، م1 ص 60.

9 -ابن دراج القسطلي، الديوان تح الدكتور محمود علي مكي ط:2، المكتب الإسلامي 1389هـ (مقدمة المحقق) ص49.

10 -الحميدي، جذوة المقتبس ص 177.

11 -ابن دراج، الديوان ص 310-309.

12 -ابن بسام، الذخيرة ق 1 م 1 ص 60.

13 -ابن دراج، الديوان ص 310 و 309.

14 -الحميدي، جذوة المقتبس،ص 177 و ص 181.

15 -ابن بسام، الذخيرة ق 1 م 1 ص 61.

16 -ابن بسام، الذخيرة، ق 1 م1 ص61.

17 -ابن بسام، الذخيرة ، ق 1 م 1ص 60.

18 -المقري، نفح الطيب 1/398.

19 -المقري، نفح الطيب 1/403.

20 -الحميدي، جذوة المقتبس ص 132-131.

21 -ابن دراج، الديوان، مقدمة المحقق ص48.

22 -ابن دراج، الديوان، مقدمة المحقق ص 49.

23 -ابن دراج، الديوان، ص 10.

24 -ابن دراج، الديوان ص 11.

25 -ابن دراج، الديوان ص 11.

26 -ابن دراج، الديوان ص12-11.

27 -ابن دراج، الديوان ص 12.

28 -النور،الآية 35.

29 -ابن دراج، الديوان ص 10.

30 -ابن دراج، الديوان ص 12.

31 -الوساطة بين المتنبي و خصومه، تأليف القاضي علي عبد العزيز الجرجاني، تح و شرح محمد أبو الفضل إبراهيم و علي محمد البجاوي، دار القلم، بيروت (د.ت)،ص 374-373.

32 - قال المحقق «ولسنا ندري ما إذا كانت القصيدة الهائية الواردة في الأوراق الماضية من الأصل قد انتهت عند آخر الورقة التي تحمل رقم 5 أم أنّ لها بقية سقطت؟»، ابن دراج، الديوان ص 13 هامش 1.

33 -حكم شانجة هذه المملكة بين سنتي 360 و 382 هـــــ، أي أنه كان معاصرا للحكم المستنصر و المنصور بن أبي عامر.

34 -راجع، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، مرجع سابق، ص 73- 74، و قد نبه على ذلك محقق الديوان، راجع ابن دراج، الديوان ص 50. (مقدمة المحقق).

35 -ابن دراج، الديوان ص 335.

36 -المقري، نفح الطيب، مرجع سابق 1/403.

37 -ابن دراج، الديوان ص 336.

38 -ابن دراج، الديوان ص 336.

39 -ابن دراج، الديوان ص 336.

40 -راجع ابن دراج، الديوان ص 337-336.

41 -ابن دراج، الديوان ص 337.

42 -ابن دراج، الديوان ص 338.

43 -ابن دراج، الديوان ص 338.

44 -ابن دراج، الديوان ص 342.

45 -ابن دراج، الديوان ص 350.

46 -راجع الزمر، الآية 71.

47 -ابن دراج، الديوان ص 333.

48 -المائدة الآية 56.

49 -ابن دراج، الديوان ص 334.

50 -الملكـــ الآية 4.

51 -النور الآية 35.

52 -ابن دراج، الديوان ص 329-328، مدحه بهذه القصيدة بمناسبة صدوره من بلاد غرسية بن شانجة بعد الغزوة المسماة بـــــ «غزوة حربيرة» التي حقق فيها المنصور نصرا ساحقا على الائتلاف النصراني الذي تزعمه غرسية بن شانجة.

53 -البيت هو: و أنفس نفس في الورى غير أنه إذا لقي الأعداء فهو بها سمح

54 -راجع النساء الآية 74 و البقرة الآية 207.

55 -الشورى الآية 36.

56 -ابن دراج، الديوان ص 321 و ص 323.

57 -المجادلة الآية 21.

58 -ابن دراج، الديوان ص 322و ص 323.

59 -ابن دراج، الديوان ص 368.

60 -راجع هذا المعنى في سورة الزمر الآية 67.

61 -ابن دراج، الديوان ص 369.

62 -سورة سبأ الآية 3 و راجع هذا المعنى في سورة يونس 61.

63 -راجع هذا المعنى في سورة الأنبياء الآية 31 و في سورة النحل الآية 15، و في سورة الحجر، الآية 19، و في سورة النمل الآية 61.

64 -ابن دراج، الديوان ص 331.

65 -ابن دراج، الديوان ص 313-312.

66 -ابن دراج، الديوان ص 358.

67 -ابن دراج، الديوان ص 345.

68 -ابن دراج، الديوان ص 341.

69 -ابن دراج، الديوان ص 321.

70 -ابن دراج، الديوان ص 310.

ظاهرة التذكير والتأنيث في العامية الجزائرية وعلاقتها بالفصحى

الدكتور عبد الكريم عوفي

جامعة أم القرى مكة المكرمة السعودية

ظاهرة (التأنيث والتذكير) من الظواهر اللغوية التي تشترك فيها اللغات البشرية جمعاء، ولكن معاملة الجنس تختلف من لغة إلى أخرى فاللغات السامية الأولى تفرق بين المذكر والمؤنث بوضع كلمة للمذكر وأخرى للمؤنث[1]

وفي اللغات الهندية الأوروبية يستعمل لفظ للمذكر ولفظ آخر للمؤنث، ففي الإنجليزية يستعمل لفظ (Son) ويعنى (ابن) مقابل لفظ (daughter) ويعني (ابنة)، وفي الألمانية يستعملون لفظا للمذكر، ولفظا للمؤنث، ولفظا للمحايد[2]

إن « لغة الألجونكين algonquin تميز بين جنس حي وجنس غير حي، ولا يهمها بعد ذلك ما يدخل تحت كل واحد من الجنسين من أشياء[3]

وقد ذكر فندريس أيضا أن « في لغة الماساي masai من شعوب شرق إفريقية يوجد جنس لما هو كبير وقوي، وجنس آخر لما هو صغير وضعيف

وبعض اللغات تقسم الأسماء الموجودة فيها من حيث الجنس إلى ثلاثة أقسام: مذكر ومؤنث وقسم ثالث هو ما يعرف في اللغات الهندية الأوروبية باسم (المحايد) أو(المبهم) neuter وهو في الأصل ما ليس مذكراً ولا مؤنثاً[5] وقد عرف فندريس المبهم neuter بقوله : « والمبهم في الهندية الأوربية جنس على حدته، فهو يقابل الجنسين الشخصيين معاً، ولكنه أقل انتشار منهما «[6] ، وذكر الدكتور إبراهيم أنيس أن أفرع اللغات اللاتينية القديمة، كالفرنسية والإسبانية والإيطالية فقدت الظاهرة الشائعة في اللاتينية القديمة (الأسماء المحايدة)، وأصبحت في اللغات الحديثة إما مؤنثة أو مذكرة[7]

ويرى الدكتور رمضان عبد التواب أن الساميات — ومنها العربية — قد وزعت القسم المحايد على القسمين الآخرين، وصارت الأسماء فيها إما مذكرة وإما مؤنثة[8] لكن المستشرق برجشتراسر يفترض أن اللغات السامية كانت تقسم الأسماء في الزمن القديم تقسيمات متفرعة أكثر من الحاضر، ولا يعرف ما إذا كان تمييز المذكر والمؤنث، في ذلك التقسيم الأصلي أم مازجه حديثا[9]

وتختلف اللغات فيما بينهما من حيث التذكير والتأنيث داخل الفصيلة اللغوية الواحدة، فما كان مؤنثاً في لغة قد يكون مذكراً في لغة أخرى، والعكس أيضاً.

فكلمة (شمس) مثلا اسم مذكر في الفرنسية، ومؤنث في العربيـــة[10]

و(الكف) في العربية تذكر وتؤنث، وفي العبرية والسريانية مؤنثة، وهي مذكر في الآرامية[11]

وقد أولى علماؤنا الأوائل هذه الظاهرة عناية كبيرة، فألفوا فيها كتبا ورسائل جمعوا فيها الألفاظ التي يقع فيها التذكير والتأنيث، وبينوا المذكر والمؤنث منها، سواء كان اللفظ حاملاً لعلامة من علامات التأنيث المنصوص عليها، أو كان اللفظ المؤنث سماعيا[12]

والمقصود بالمذكر والمؤنث عند علمائنا العرب هو ما نقرأه في قول ابن الحاجب : «المؤنث ما فيه علامة تأنيث لفظا أو تقديرا، والمذكر بخلافه، وعلامة التأنيث التاء و الألف مقصورة وممدودة «[13]وكذلك ما نقرأه في قول ابن عقيل : «أصل الاسم أن يكون مذكرا، والتأنيث فرع عن التذكير، ولكون التذكير هو الأصل استغنى الاسم المذكر عن علامة تدل على التذكير، ولكون التأنيث فرعاً عن التذكير افتقر إلى علامة تدل عليه وهي التاء، والألف المقصورة أو الممدودة، والتاء أكثر في الاستعمال من الألف، ولذلك قدرت في بعض الأسماء، كعين وكتف»[14]

وإذا أردنا التعرف على الظاهرة في اللغات السامية فإننا نجد الدراسات المقارنة- شقيقات العربية- تفيد أن العربية تشترك مع الساميات في استعمال علامات التأنيث (التاء والألف المقصورة أو الممدودة) للدلالة على اللفظ المؤنث[15].

ويرى برجشتراسر أن التاء مع الفتحة قبلها، أي (At) سامية الأصل، وأن الألف المقصورة توجد في العبرية والآرامية، والألف الممدودة لا يقابلها في اللغات السامية إلا القليل.[61]

وبعد هذا العرض الموجز لملامح ظاهرة التذكير والتأنيث في اللغات عامة والعربية خاصة[17]، أقدم وصفاً تحليلياً للظاهرة في العامية الجزائرية مع إبراز أوجه التقائها مع العربية الفصحى وافتراقها عنها سلك العامة مسلكا مغايرا للعربية الفصحى في تأنيث الأسماء وتذكيرها، إذ تكـــــاد (التاء) تكون العلامة الرئيسة للتأنيث في العامية الجزائرية فقد تبين من المادة المسموعة من أفواه الناس في أماكن مختلفة، وفي جهات عدة من الجزائر أن :

1 -الألفاظ التي وردت في العربية الفصحى مؤنثة أو يستوي فيها التذكير والتأنيث[18]، أو خالية من إحدى علامات التأنيث، تؤنث بالتاء، وذلك في مثل:

أ - الألفاظ الدالة على أحوال المؤنث، أو يشترك فيها الجنسان (المذكر والمؤنث)، والتي على وزن (فاعل)، و (فعول) [19]، نحو: طالقة، وعانسة، وطاهرة، وحاملة، وصابرة، وصارفة[20]، ودافعة[21]، وعاقره،[22] وقد حولوا (فاعل وفعول) في نطقهم إلى (فاعلة)، ونطقهم هذه الصفحات بالتاء هو الأكثر وبلا تاء هو القليل وهذه الصفات جاءت في العربية الفصحى بلا تاء، لأنها أصلية في التأنيث[23].

ب-الألفاظ التي يستوي فيها المذكر والمؤنث، والتي تجيء على وزن (فعول) نطقها العامة على الأصل كما في الفصحى بلا تاء وهو قليل، أو يلحقون بها التاء وهو الأكثر، كقولهم : عْرُوسةعْجوزه، فحولـــوا (فعول) إلى فعولة).

ولفظ (عجوز) يستعمله العامة للشيخ والمرأة على حد سواء، بالتاء وبلا تاء، فهم يقولون للمرأة؛ صغيرة كانت أم كبيرة : (عْجوزه، وعْجوز) ، [42] وبعض الناس من الكبار في المجتمع الجزائري يتحاشون ذكر اسم المرأة عامة، لاعتقادات معينة فيكنون عن ذكرها باسم (لَعْجُوزْ)، وإذا ورد في سياق الحديث الكلام عن المرأة قالوا: (داري، أو أهلي، أو عبادي، أو عيالي، أو عجوزي، أو مولات الدار) مع إلحاق كلمة من هذه الكلمات المستعملة عبارة (أكرمكم الله)، وهذا الاستعمال جار على ألسنة العامة ممن يسكنون الأرياف والقرى، ولا سيما مناطق الجنوب، لأن لفظ المرأة من الألفاظ المحظورة، التي تعرف في علم اللغة باسم (ألفاظ اللامساس) taboo [52]

وهذا الاستعمال للفظ (عجوز) بلا تاء مروي عن العرب الفصحاء، فقد أورد صاحب اللسان أن « العجوز والعجوزة من النساء: الشيخة الهرمة»[26]

ج- يؤنثون لفظ (زوج) فيقولون: (زوجة) إذا كانوا يريدون زوجة الرجل، واللفظ مطّرد الاستعمال، ولا يستعملون(زوج) للمؤنث إطلاقاً وقديما «ذكر الفراء أن زوجاً المراد به المؤنث فيه لغتان : (زوج) لغة أهل الحجاز، و(زوجة) لغة تميم وكثير من قيس وأهل نجد»[27]

وقد ورد الاستعمالان في القرآن الكريم، إذ قال تعالى : (وَقُلنا يا آدمُ اسْكُنْ أنتَ وزوجُكَ الجنَة)[28] وقال أيضا : (يَا أيُها النبيُّ قُل لأزواجِكَ إنْ كُنتُنَّ تُرِدْنَ الحياةَ الدُنيا وزينَتَها فَتَعالَيْنَ أُمَتّعُكُنَّ وأُسَرّحُكُنَّ سَرَاحاً جَميلاً)[29]

ويظهر أن العامة في الجزائر قد سلكت مسلك التميميين، لأن لغتهم أكثر شيوعاً في الاستعمال[30] ولعل ذلك يرجع إلى تأثير القبائل العربية — ومنها التميمية، التي نزلت عقب الفتح الإسلامي في مناطق مختلفة من الجزائر، وقد يكون الاستعمال ناتج عن القياس الخاطئ

وقد روت لنا كتب اللغة ومعجماتها أن الأصمعي كان ينكر على أبناء عصره استعمال لفظ (زوجة) ويراه لحنا يقول : «ما أقل ما تقول العرب الفصحاء فلانة زوجة فلان، إنما تقول : زوج فلان»[13]. والدراسات المقارنة أثبتت أن لفظ (زوجة) ليس من أصل سامي، فهذا الدكتور محمود فهمي حجازي يقول: إن لفظة (زوجة) يوناني (zeugos) دخل الآرامية أول الأمر وكانت تنتهي بفتحة طويلة (زوجا) تكونت إلى جانب صيغة (زوج) غير المنتهية بأداة التعريف، ثم انتقلت إلى العربية فحملت معنى كلمة (بعل) التي تعني الرجل المتزوج، وزوجته هي (الزوج) ثم اختصت كلمة(زوج) بالمذكر و(زوجة) بالمؤنث، وبالتالي يكون مما اقترضته العربية في عصورها الأولى من اللغات الأخرى، وعلى مر السنين أخذ مكانته في المعجم اللغوي العربي، فصار يؤدي وظيفته، وهي دلالته على المؤنث (امرأة الرجل) إلى جانب كلمة (زوج)[23].

وقد حاول عبد الجليل مرتاض أن يفسر استعمال اللفظ في منطق القبائل العربية فقال: إن أهل الحجاز قاسوا (زوج) على كلمات مماثلة بلا تاء، مثل: عنق، وذراع، وسبيل، وطريق[33] لكـــــن هذا التفسير- فيما يبدو لنا — مستبعد، لأن هناك كلمات كثيرة أنثت بلا تاء.

د- ألفاظ وردت في العربية الفصحى مؤنثة عن طريق السماع، أي : تلك الألفاظ التي لا تلحقها علامة من علامات التأنيث، والعامة يؤنثونها بإلحاق آخرها تاء، مثل: القدر[34]، والكبد[35]، والقدوم[36] والفرس[37]والعقرب[38]هذه الألفاظ سمعت كثيراً من عوامنا- ولا سيما في منطقة الجنوب — ينطقونها بالتاء (القدرة[39]، والكبدة، والقدومة، والفرسة، والعقربة) أما نطقهم الكلمات السابقة بلا تاء فهو مسموع لكنه قليل والملاحظ أن هذه التاء التي تلحق آخر الأسماء والصفات، مثل : رْحِيمه، وحْنِينه، وكْبِيره، وصُغَيْرَه[40]، وخْشِينه، ومْلِيحه، لا يتلفظ بها تاء خالصة، بل يقفون عليها، فهي كالهاء في حالة الوقف في العربية الفصحى

ويرى الدكتور رمضان عبد التواب أن ظاهرة الوقف « انتقلت إلى الكلام المتصل كذلك في كل من الآرامية والعبرية، إلى ألف مد فيقال في الآرامية (bisa) (رديئة)، وفي العبرية (yalda) (بنت)، وفي اللهجات العربية (sagarakbira) (شجرة كبيرة)، ولم تبق التاء المفتوح ما قبلها إلا عند الاتصال بمضاف إليه[14]

هـ – ويؤنثون ما كان في الأصل على صيغة (فَعلى) بفتح الفاء وكسرها بإلحاق اللفظ تاء في الأخير، فيقولون : دفله، وحلوه، وليله، وسلوه، ونحوه في: دفلى، وحلوى، وليلى، وسلوى، ونحوى

2 –الأسماء التي جاءت في اللغة العربية الفصحى مؤنثة بألف التأنيث المقصورة، وهي التي جاءت على صيغة (فَعلى) بفتح الفاء، أو على أوزان أخرى يؤنثها العامة بالتاء، فيقولون : شبعانه، وجوعانه، سكرانه[42]وعطشانه، وكسلانه، وزعفانه، وحيرانه، ومليانه، وفرعانه، وتعبانه، وبردانه، وفشلانه، وقلقانه، وندمانه، وهربانه، وفرحانه، غضبانه،[43]

ويلاحظ على هذه الأسماء (الصفات) أن العامة جاءت بها على (فعلانة) وهو مسلك مغاير للفصحى يطرد في ألسنة الجزائريين عامة، ومسموع في بعض اللهجات العربية المعاصرة في الوطن العربي[44].

إن هذا الاستعمال اللهجي في ألسنة العامة له أصول في عربيتنا القديمة إذ أوردت كتب اللغة ومعجماتها أن قبيلة بنى أسد– وهي من القبائل التي أُخذت عنها العربية الفصيحة– كانت تقول: سكرانة، وملآنة، أي أنها خالفت الفصحى في تأنيث النعوت التي على (فعلان وفعلى)[45]

وقد أجاز المجمعان اللغويان المصري والعراقي، في أثناء انعقاد دورتهما في بغداد عام 1965م، أن يؤنث كل وصف على صيغة (فعلان)، على (فعلانة)[46]

3 – الأسماء المؤنثة في العربية الفصحى، التي جاءت على صيغة (فعلاء)، مثل: حمراء، وزرقاء، وصفراء، وينطقها العامة بإسقاط الألف والهمزة، ويلحقون آخرها تاء، فيقولون: حمره، وزرقه، وصفره، وبيضه، وخضره، وعميه، وكحله، وسوده، وعرجه

وهذا الاستعمال في ألسنة عوامنا له نظير في معظم اللهجات العربية المعاصر في الأقطار العربية[47]وقد خالفت العاميات العربية الفصحى في هذا الاستعمال.

ويبدو أن علامتي التأنيث؛ الألف المقصورة والممدودة في طريق الانقراض من اللهجات العربية المعاصرة، ولعل « السر في زوال هاتين العلامتين وحلول العلامة الأولى، وهي التاء محلهما هو ميل اللغة إلى أن تسير في طريق السهولة والتيسير، فبدلاً من أن تكون عندنا للتأنيث ثلاث علامات تصبح في اللغة علامة واحدة لكل أنواع المؤنث «[48]

4 – أما الجنس المميز واحده بهاء التأنيث فإنهم يذكرونه ويؤنثونه، وتذكيره أكثر اطّرادا فهم يقولون : هذا البقر، هذا النخل، هذا التمر، هذا النحل، ويقولون في المفردة المؤنثة: بقرة ونخله، و تمره ونحله وهذا الاستعمال يوافق استعمال العربية الفصحى[49].

وهذا المسلك في التذكير والتأنيث كان شائعاً في اللهجات العربية القديمة إذ أورد أبو حيان في البحر المحيط أن» الجنس المميز مفرده بهاء التأنيث يؤنث في لغة الحجاز ويذكر في لغة تميم ونجد، وقد جاء القرآن بهما»[50]

إن هذا الاستعمال عند عوامنا لا يقتصر على الألفاظ التي مُيِّز مفردها بهاء التأنيث، بل هو عام ويشمل الأسماء الأخرى التي عُرف تأنيثها عن طريق السماع وهذا ما تتناوله الفقرة التالية

5 -ألفاظ يستوي فيها التذكير والتأنيث، والتأنيث ورد فيها عن طريق السماع، لأنها لا تحمل علامات التأنيث المعروفة.

فالعامة عندنا يذكرون ما أصله التأنيث باسم الإشارة، كقولهم: هذا الدار، وهذا لَكْرَاع، وهذا البير، وهذا الفأس، وهذا لْكَرْش، وهذا البيت، وهذا لَعْجوز، وهذا السوق[51]

لكن العامة عندما يخبرون عن هذه الألفاظ نجدهم ينطقون صفاتها مؤنثة، فيقولون: هذا الدار كبيره، وهذا الكرش مليانه، وهذا لعجوز مسكينه، وهذا البير ضيقه، وهذا لكراع سمينه وهذا الاستعمال مسموع في مناطق الشرق الجزائري والجنوب عامة واسم الإشارة في الجمل المتقدمة يلاحظ أنه متقدم على المشار إليه، لكنهم عندما يؤنثون تلك الأسماء فإن اسم الإشارة يأتي مؤخرا في الرتبة وقد لا يتلفظ به ويكتفى بالصفات لاغير، نحو: اليد ذِى لَمَّنْه؟ (هذه اليد لمن؟)، والريح قاويه (الريح قوية)، والموس ذِى ماضيه (هذه الموسى حادة)، والفرس ذِى جرَّايه (هذه الفرس سريعة الجري)

ومن الأسماء أيضا التي يقع فيها التذكير والتأنيث: الذراع، والطريق، والنحل، والكف، والرجل، ولَرنْب، ولَعْسل، والسماء، والموت، ولَكْتف،

والزقاق، واليد، ولَبْصل، والعود (الفرس)، والصبع، والزيت يقول « بني فتح « : الزيت الحرّه دوا فلفظ (الزيت) مؤنث، ويقولون: كِصّفِّيوْ الزِّيت يَطْلَعْ فُوكْ[52]أي: عندما يصفى الزيت فوق الماء فلفظ (الزيت) في العبارة مذكر [53].

وقد ثبت من استقراء الصيغ المسموعة أن استعمال اسم الإشارة المفرد المذكر أكثر اطّراداً مع هذه الأسماء

ولعل هذا الاستعمال، أي تذكير الأسماء المؤنثة، يرجع إلى إحساس العامة عندنا بأن من سمات التذكير التعظيم كما هو الحال عند القبائل العربية القديمة[54] وليس الأمر ببعيدأن تكون العامية الجزائرية مسايرة في تطورها للغة العربية الفصحى، لأن « الأسماء التي تدل في العربية على التذكير والتأنيث في آن واحد تميل في تطورها إلى الاستقرار على حال واحدة، وهي التذكير»[55]

إن هذه الألفاظ التي وردت على ألسنة العامة بالتذكير والتأنيث تعود إلى أصول قديمة في العربية الفصحى ولهجاتها، ولذلك لانجانب الصواب إذا قلنا: إنها امتداد لما استعملته العربية فقد روت كتب اللغة ومعجماتها بعض الألفاظ معزوة بالتذكير إلى قبيلة وبالتأنيث إلى قبيلة أخرى، فمثلا:

السوق : يذكره التميميون ويؤنثه الحجازيون[56]

الزقاق : يذكره التميميون ويؤنثه الحجازيون[57]

الطريق : يذكره التميميون ويؤنثه الحجازيون[58]

السماء : يذكره التميميون ويؤنثه الحجازيون [59]

التمر : يذكره التميميون ويؤنثه الحجازيون[60]

الذهب : يذكره التميميون ويؤنثه الحجازيون[61]

ومن الألفاظ التي وردت بالتذكير والتأنيث و لم تعز لقبيلة معينة: العرس [62]والموسى[63]، والذراع[64]، والزبد[65]، وهذه الكلمة الأخيرة يستعملها العامة بالتأنيث لاغير، فتنطق بالتاء (الزبده)[66]ومثلها أيضاً المشط، فالعامة ينطقونها بالتاء(المشطه)[67]

هكذا تبدو ظاهرة الجنس من الظواهر الصعبة التي يقف الدراس إزاءها حائراً في تحديد الضوابط التي تتحكم فيها فهذا برجشتراسر يقول بشأنها :» ظاهرة التذكير والتأنيث من أغمض أبواب النحو، ومسائلهما مشكلة» [68]

أما فندريس فيرى أن « التمييز بين الأجناس النحوية لا يقوم على شيء من العقل: إذ لا يمكن لإنسان كائناً من كان أن يقول لماذا كانت table (مائدة) و chaise (مقعد) و salieret (إناء ملح) مؤنثة في حين كانت tabouret (مقعد مطبخ) و fauteuil (مقعد بجوانب) sucrier (إناء السكر) مذكرة». [96]

وعلى هذا الأساس فإن معرفة سبب تأنيث هذا اللفظ وتذكير ذاك، أو لماذا استوى التذكير والتأنيث في ألفاظ دون أخرى أو لماذا جاءت علامات دالة على التأنيث في ألفاظ، و لم تجئ في ألفاظ أخرى. تبقى من الأمور الغامضة، ولعلها ترجع إلى ما ارتبطت به صفة الجنس في أذهان الشعوب من أفكار متباينة، هذه الأفكار التي يقف الباحث إزاءها حائراً في تحديد طبيعتها[70]ولهذا

قال الدكتور إبراهيم أنيس: « يجب أن نعترف بتلك الحقيقة الملوسة في كل اللغات وهي أن فكرة التأنيث والتذكير قد اختلطت بعناصر لا تمت للمنطق العقلي بسبب»[71]

لكن هذه الصعوبة لم تثن عزيمة الدراسين- منذ القديم- في محاولتهم تفسير ظاهرة الجنس، فهذا الدكتور علي عبد الواحد وافي يقدم لنا تفسير التأنيث لفظ (الرأس) في عامية بعض المصريين، إذ أرجع ذلك إلى تأثير الأعضاء المؤنثة المجاورة لها، وهي العين والأذن.[72]

وهذا اللفظ نفسه جاء في العربية الفصحى مذكرا، وفي العامية الجزائرية مذكراً ومؤنثاً، ولعله كذلك في لهجات عامية أخرى في الأقطار العربية مما يستوي فيه التذكير والتأنيث أيضاً، لكن الأعضاء المجاورة لها هي نفسها فهل نقول : إن لفظ (الرأس) استعمل مذكراً في عامية الجزائريين أو في عاميات أخرى لأنه مجاور لأعضاء مذكرة مثله؟ سؤال يحتاج إلى إجابة مقنعة ولعل تأنيث كلمة (الرأس) يرجع إلى- كما يقول الدكتور إبراهيم أنيس- : «رواسب سامية قديمة احتفظت بها اللهجات الحديثة «[73] وهذا الأمر يحتاج إلى تحقيق علمي دقيق.

لا شك أن « تطور انتقال الكلمة في تطورها من التذكير إلى التأنيث أمر يحتاج إلى معرفة الظرف الاجتماعي الخاص، الذي يبرز مثل هذا التطور»[74]

هذه هي الملامح العامة التي تحدد استعمال ظاهرة الجنس في العامية

الجزائرية وصلة هذا الاستعمال بما ورد في العربية الفصحى ولهجاتها؛ القديمة والحديثة، وكما ذكرت فإن تحديد الضوابط اللغوية المتحكمة في الظاهرة تبقى من الأمور التي يصعب على الباحث أن يقدم بشأنها رأيا قاطعا، رغم اهتمامات الباحثين المستمرة

وفي ضوء ما تقدم يمكن أن نخلص إلى الملاحظات الاتية:

1 - الجنس ظاهرة عامة في اللغات البشرية، وتختلف اللغات في استعماله.

2 -تقسم اللغات البشرية الأسماء من حيث الجنس ثلاثة أقسام: مذكر، مؤنث، ومحايد، ولا تعرف اللغات السامية- ومنها العربية ولهجاتها- المحايد

3 - علامات التأنيث في اللغات السامية ثلاث، هي: التاء والألف المقصورة والممدودة

4 - اختفت العلامتان الألف المقصورة والممدودة من العامية الجزائرية، والعاميات العربية المعاصرة، وحلت محلهما التاء

5 -خالفت العامية الجزائرية الفصحى في تأنيث الأسماء والصفات التي جاءت على أوزان(فاعل، وفعول، وفَعلى، وفَعلاء)، إذ أنثت بالتاء في العامية.

6 - يطّرد استعمال لفظ (زوجة) بدل (زوج)، وهو استعمال قديم أُثر

عن قبيلة تميم استعماله، وهي من القبائل التي أخذت عنها العربية الفصيحة، مع أن بعض اللغويين أدرجوا هذا الاستعمال ضمن ما أسموه باللحن

7 -تعامل العامة الألفاظ المؤنثة السماعية في الفصحى معاملة الألفاظ التي تؤنث بالتاء

8 -تتفق العامية الجزائرية مع العاميات العربية المعاصرة، ومع بعض اللغات السامية، كالعبرية والآرامية في ظاهرة الوقف بالفتحة على آخر الاسم الذي ينتهي بالتاء

9 -موافقة العامية الجزائرية اللهجة التميمية في تذكير ما مفرده هاء التأنيث

10 -استعملت العامية الجزائرية الأسماء التي وردت في العربية الفصحى بالتذكير والتأنيث، - وكان التذكير فيها أكثر- بنفس الاستعمال

11 -مالت العامة إلى تذكير الأسماء المؤنثة، وهو مظهر عام في العربية الفصحى

12 -ظاهرة الجنس من الأمور التي يصعب تحديد طبيعتها، لأنها اختلطت بعناصر لاتمت للمنطق العقلي بصلة[75].

13 - وأخيرا فإن ظاهرة الجنس لا تخضع لقياس مطرد، وقد ألمح إلى هذا الأمر قديما أبن التستري الكاتب (ت361هـ)، إذ قال: « ليس يجري أمر

المذكر والمؤنث على قياس مطّرد، ولا لهما باب يحصرهما كما يدّعى بعض الناس» [76]

مصادر البحث ومراجعه

1 - إصلاح المنطق: يعقوب بن إسحاق، تح : أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون، دار المعارف بمصر، ط:3، (دت)

2 - أضواء على لغتنا السمحة» سلسلة كتاب العربي» : محمد خليفة التونسي، مطبعة حكومة والكويت، 1985 م

3 -البحر المحيط: أثير الدين أبي عبد الله محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي الغرناطي، مطبعة السعادة بمصر، ط:1، 1328هـ.

4 -البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث: أبو البركات ابن الأنباري، تح: د/ رمضان عبد التواب، مطبعة دار الكتب، 1970 م

5 -التطوير النحوي للغة العربية: ج برجشتراسر، تح : د/ رمضان عبدالتواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ودار الرفاعي بالرياض، 1982م

6 -التطوير اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه : د/ رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ودار الرفاعي بالرياض، ط : 1981م، ط: 2، 1991م

7 -تهذيب اللغة: أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، تح: عبد السلام هارون وآخرين، الدار المصرية للتأليف والنشر، القاهرة، -1964 1967 م

8 -الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث: محمد حسين آل ياسين، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط :1، 1980م

9 -دور الكلمة في اللغة : ستيفن أولمان، ترجمة : د/ كمال محمد بشر، مكتبة الشباب، القاهرة، 1973م

10 -شرح ابن عقيل : بهاء الدين بن عقيل المصري المهمذاني، تح : محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط: 6، 1974 م

11 -شرح جمل الزجاجي: ابن عصفور الإشبيلي، تح : د/ صاحب جعفر أبو جناح، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، العراق، 1982م

12 -شرح الفصيح : ابن هشام اللخمي، تح : د/ عبد الكريم عوفي(دكتوراه مخطوطة)، جامعة الجزائر، 1992 م

13 -صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القلقشندي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، « نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية»، (دت).

14 -الصحاح « تاج اللغة وصحاح العربية «: اسماعيل بن حماد الجوهري، تح : أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط :3، 1984م

15 -العامية الجزائرية وصلتها بالفصحى : د/ عبد المالك مرتاض، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981م

16 -علم اللغة : د/ علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة ط:7، (دت)

17 -علم اللغة العربية « مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية « : د/ محمود فهمي حجازي، وكالة المطبوعات، الكويت، 1973م

18 -الفوارق النحوية بين اللهجات العربية الفصيحة، : عبد الجليل مرتاض، رسالة ماجستير مخطوطة، جامعة الجزائر، 1982م

19 -الكافية في النحو: جمال الدين أبي عمرو عثمان بن عمر، المعروف بابن الحاجب، شرح: رضي الدين الأستر ابادي، دار الكتب العلمية، بيروت، (دت)

20 -لسان العرب المحيط : ابن منظور الإفريقي، تقديم عبدالله العلايلي، ترتيب يوسف خياط، دار الجيل، بيروت، دار لسان العرب، بيروت، ط : 1988م

21 -اللغة : ج فندريس، تعريب عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مطبعة لجنة البيان العربي، 1950

22 -لهجة بريكة وعلاقتها بالعربية الفصحى « دراسة لغوية وصفية « : عبد الكريم عوفي (ماجستير مخطوطة)، جامعة قسنطينة، 1986م

23 -لهجة تلمسان وعلاقتها بالعربية الفصحى(ماجستير مخطوطة): التيجيني بن عيسى، جامعة تلمسان، -1990 1991م

24 -لهجة جيجل وعلاقتها بالعربية الفصحى « دراسة لغوية للهجة بني فتـــح « (ماجستير مخطوطة): بلقسام بلعرج، جامعة عنابة، 1986م

25 -لهجة تميم وأثرها في العربية الموحدة: غالب فاضل المطلبي، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1978

26 -المخصص : أبو الحسن علي بن إسماعيل، المعروف بابن سيده، تح: لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، (دت)

27 -المذكر والمؤنث: ابن التستيري الكاتب، تح : د/ عبد المجيد هريدي، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ودار الرفاع بالرياض، ط : 1، 1984م

28 -المذكر والمؤنث : أبو بكر بن الأنباري، تح : محمد عبد الخالق عضيمة، مطابع الأهرام التجارية بالقاهرة، 1981م.

29 -المزهر في علوم اللغة وأنواعها: عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، تح : محمد أحمد جاد المولى وآخرين، دار التراث بالقاهرة، ط :3، (دت)

30 -معجم تيمور الكبير في الألفاظ العامية ج 2 : أحمد تيمور، تح : د/ حسين نصار، الهيئة العامة للتأليف والنشر، 1971م

31 -من أسرار اللغة : د/ إبراهيم أنيس، مكتبة الآنجلو المصرية، القاهرة، ط :6 ، 1978.

32 -الموشح : أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني، تح: على محمد البجاوي، دار نهضة مصر، 1965م.

هوامش البحث:

1 – البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث، لابن الأنباري (مقدمة المحقق) نص 37، وينظر : من أسرار اللغة، للدكتور إبراهيم أنيس، ص 160

2 – البلغة، لابن الأنباري (مقدمة المحقق)، ص 38، واللغة، لفندريس، ص 129

3 – اللغة، لفندريس، ص 131

4 – اللغة، ص 132

5 – انظر : مراجع الهامش (1) أعلاه

6 – اللغة، ص 129

7 – من أسرار اللغة، ص 160

8 – مقدمة البلغة، لابن الأنباري، ص 38

9 – التطوير النحوي للغة العربية، ص 114، 115

10 – مقدمة محقق البلغة، لابن الأنباري، ص 40، والدراسات اللغوية عند العرب، محمد حسين آل ياسين، ص347، ومن أسرار اللغة، ص 162

11 – من أسرار اللغة، ص 162، والدراسات اللغوية عند العرب، ص 485،486

12 – مقدمة محققق البلغة، ص 49، ومقدمة محقق المذكر والمؤنث، لأبي بكر بن الأنباري، ص 1- 12

13 – الكافية في النحو 2/161، وانظر: شرح جمل الزجاجي 2/369

14 – شرح ابن عقيل 4/91

15 – التطوير النحوي للغة العربية، 113، ومقدمة البلغة، ص 42

16 – التطوير النحوي للغة العربية، ص 115

17 – لم أتوسع في عرض الضوابط التي حددها علماء العربية لظاهرة الجنس، لأن ذلك يبعدنا عما نهدف إليه من هذه الدراسة

18 – ينظر: المخصص لابن سيدة 16/124

19 – البلغة، لابن الأنباري ص 84-83

20 – للكلبة عندما تشتهى الفحل

21 – يقال للشاة عندما تكون عشراء: دافعة، وفى منطقة الحضنة (المسيلة والجلفة وبريكه) سمعتهم يقولون أيضا : النعجة دَفَّعْ، والشياه دَفَّع

22 – لهجة تلمسان وعلاقتها بالعربية الفصحى (ماجستير مخطوطة) التيجيني بن عيسى، ص 40

23 – ينظر: شرح الفصيح : ابن هشام اللخمي، 2/ 284

24 – يقال في المثل العامي الجزائري : (الغيرة والحيرة ترد لعجوز كبيرة) ينظر : العامية الجزائرية وصلتها بالعربية الفصحى د/ عبد المالك مرتاض، ص 133، وينظر: لهجة جيجل وعلاقتها بالعربية الفصحى، ص146

25 – ينظر: دور الكلمة في اللغة: ستيفن أولمان، ص174، والتطوير اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه، ط: 2، ص:203

26 – اللسان (عجز) 4/692

27 – البحر المحيط، لأبى حيان 3/380، والمخصص 17/24

28 – سورة البقرة : 35

29 – سورة الأحزاب : 28

30 – المذكر والمؤنث، لابن التستري، ص 80، والمخصص 17/24

31 – الموشح، للمرزباني،238ن 284، وينظر: المخصص 17/24

32 – علم اللغة العربية، ص 214

33 – الفوارق النحوية بين اللهجات العربية الفصيحة، (ماجستير مخطوطة)، ص 124

34 – المخصص 17/16

35 – البلغة، ص70

36 – البلغة، ص 70

37 – المذكر والمؤنث، لأبي بكر الأنباري 1/59،79

38 – اللسان (عقرب) 4/840، وفيه: أن العقرب للذكر والأنثى، وقد يؤنث على عقربة

39 – ينطق العامة القاف كالجيم المصرية

40 – تنطق في بعض المناطق مصغرة.

41 – مقدمة البلغة، ص 44.

42 – ينطق سكان المناطق الجنوبية السين مشوباً بالصاد

43 – ينطق سكان المناطق الجنوبية أيضا الغين قافا باطراد ينظر لهجة بريكة وصلتها بالعربية الفصحـــى(ماجستير): عبد الكريم عوفي، ص45، 47، 138، ولهجة جيجل، ص 148

44 – ينظر: معجم تيمور الكبير 2/127

45 – ينظر: إصلاح المنطق، لابن السكيت، 358، والصحاح، للجوهري (سكر) 2/687، والمزهر، للسيوطي 2/217

46 – أضواء على لغتنا السمحة، محمد خليفة التونسي، ص 156، 157

47 – التطوير اللغوي مظاهرة وعلله وقوانينه، د/ رمضان عبد التواب، ص55، ومقدمة البلغة، ص47

48 – التطوير اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه، ص 56، ومقدمة البلغة، ص47

49 – البلغة، ص 83.

50 – البحر المحيط 3/ 380، وينظر: المزهر2/277

51 – تنطق السين صاداً عند سكان الجنوب

52 – فوك: فوق، لأن الجيجليين ينطقون القاف كافاً باطراد.

53 – ينظر: لهجة جيجل وعلاقتها بالعربية الفصحى، 150

54 – لهجة تميم وأثرها في العربية الموحدة، غالب فاضل المطلبي، ص 278

55 – من اسرار اللغة، 161.

56 – المذكر والمؤنث، لابن التستري، 85، والصحاح (زقق)4/1491، والبلغة، ص 83، والمزهر 2/225

57 – الصحاح (زقق) 4/1491، وصبح الأعشى، للقلقشندي 1/155

58 – الصحاح (زقق) 4/1491، والمخصص 17/17، والمزهر2/225

59 – المذكر والمؤنث، لابن التستري، 83، والبحر المحيط 1/83

60 – المزهر 2/277

61 – التهذيب (ذهب) 6/263، والمزهر 2/277.

62 – المخصص17/19، والمزهر 2/224.

63 – إصلاح المنطق، ص 359، والمخصص 17/17، والمزهر 2/224، وصبح الأعشى 1/155.

64 – المذكر والمؤنث، لابن التستري، ص76، وشرح جمل الزجاجي 2/376، والمخصص 17/13.

65 – اللسان (زبد) 3/5.

66 – العامية الجزائرية وصلتها بالعربية الفصحى، ص 40.

67 – العامية الجزائرية وصلتها بالعربية الفصحى، ص 51.

68 – التطوير النحوي للغة العربية، ص 112.

69 – اللغة، ص، 127.

70 – لهجة تميم وأثرها في العربية الموحدة، ص 281

71 – من أسرار اللغة، ص 164

72 – علم اللغة، ص 316

73 – من أسرار اللغة، ص 165

74 – من أسرار اللغة، ص 165، وينظر: الفوارق النحوية بين اللهجات العربية الفصحى، 115

75 – لهجة تميم وأثرها في العربية الموحدة، ص 278

76 – المذكر والمؤنث، ص 47.

المنحى التعليلي في قياس يونس بن حبيب

د.خالد بوزياني
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة عمار ثليجي الأغواط - الجزائر-

الملخص

لقد لفت انتباهي وأنا أتصفح ما كتب عن أوائل النحاة شخصية كان لها الفضل الكبير على الدرس النحوي، إنه يونس بن حبيب الضبي البصري معلم سيبويه وأحد أساتذته الذين اعتمد عليهم في تدوين مصنفه (الكتاب)، فرجعت إلى هذا المصنف العظيم، فوجدت آراء يونس تأتي في الدرجة الثانية بعد آراء الخليل، من حيث عددها فأيقنت أن مساهمات الرجل في الميدان النحوي لا تقل أهمية عن مساهمات الخليل، ثم رجعت إلى كتب التراجم فوجدت أصحابها يشهدون له بالعلم في ميدان النحو وسموه بصاحب القياس المتفرد.

ومع أن يونس بن حبيب اهتم بالسماع اهتماما كبيرا فإنه لم يكن يهتم بالجمع مهما كان ومهما روي، ولكن همه الوحيد هو السماع الموثوق به وربما كان هذا من أسباب إعجابه بأبي زيد فقد كان يقول: «حدثني

الثقة عن العرب، فقيل له من الثقة؟ فقال:أبو زيد، فقيل: لم لا تسميه؟ قال: هو حي بعد فأنا لا أسميه»

إن هذه الصفة جعلت من يونس رجل علم يمتاز بالموضوعية والأمانة العلمية فهو دقيق النظر إلى المادة التي يجمعها ويستشهد بها، والتي جعلها مرتكزا لآرائه النحوية واللغوية.

التعليل عند يونس :

لقد أدرك يونس أن الوصف وحده لا يكفي، بل لا بد من التعمق في أسباب الظاهرة النحوية لمعرفة نظامها، وفيما يلي بعض النماذج من ذلك:

1-1 الإضمار :

يرى يونس في الجملة منْ أنتَ زيدًا؟ أن زيدا ليس خبرا ولا مبتدأ ولا مبنيا على مبتدإ وإنما هو مفعول به لفعل مضمر تقديره: من أنت تذكر زيدا [1].

ففي هذا المثال حاول يونس استنباط[2] القانون الذي يفسر هذا التركيب في كلام العرب وفي رأيي أنه قد أشار في هذه القضية إلى مفهوم الاقتصاد «الذي يعني ترتيب العناصر اللغوية على نمط يسهل عملية التواصل اللغوي»[3].

ويمكننا إبراز تعليل يونس لهذه الجملة كالآتي :

أ- من أنت زيدا؟

ـــــــــــ| -------| ـــــــــــــــ الكلام

من أنت تذكر زيـــــــــدا

من خلال هذا الشكل يتضح لنا تفسير ظاهرة في هذه الجملة فالفعل تذكر موجود في السياق وفي التصور الذهني للمتكلم، وبما أن الكلام نشاط فردي فإنه يمكن للمتكلم أن يستغني عن جزء من مكونات الجملة في ظل العرف اللغوي الذي ينتمي إليه.

وعلى هذا القياس علل يونس النصب في قوله تعالى: (**بلى قادرين**)[4]

قال سيبويه:«فهو على الفعل الذي أضمر كأنه قال بلى نجمعها قادرين حدثنا بذلك يونس»[2]، وعلى هذا القياس أيضا علل أبو عمرو بن العلاء النصب في الريح من قوله تعالى:(**ولسليمان الريحَ**)[5]، أي سخرنا الريح، فانتصب بسخرنا وهو فعل مضمر.

ويرى يونس أنه لا يجوز العطف بكيف على أساس إضمار الفعل قال سيبويه : « وتقول مررت برجل مسلم فكيف رجل راغب في الصدقة بمنزلة فأين راغب في الصدقة زعم يونس أن الجر خطأ لأن أين ونحوها يبتدأ بهن ولا يضمر بعدهن شيء»[6] .

ويتضح لنا من خلال هذا المثال أن يونس قاس أداة كيف على أداة أين على أساس الأصل والفرع كما هو في هذا الشكل.

أين	راغب في الصدقــة	أصل
كيف	رجل راغب في الصدقة	فرع

وأما العلة فهي عدم الإضمار بعد أين ونحوها لأن هذه الأدوات ليست كحروف العطف التي يعمل فيما بعد أين ونحوها لأن هذه الأدوات ليست كحروف العطف التي تعمل فيما بعدهن عامل الاسم الذي قبلهن فأسماء الاستفهام لا يعمل ما قبلهن فيما بعدهن لأن لها الصدارة في الكلام فلا نقول مثلا: رأيت زيدا فأين عمرا[8].

الحال:

من القياسات المتفردة التي جاء بها يونس مجيء الحال معرفة بالألف واللام نحو: مررت به المسكين على قوله مررت به مسكينا، وقد رفض سيبويه هذا الرأي لأن الحال لا ينبغي أن تأتي معرفة ولكن يمكن أن يحمل على الإضمار على أساس أن **المسكين** مفعول به لفعل محذوف تقديره **لقيت** [9].

لكن يونس عندما قال بذلك مرتكزا على ما سمعه من كلام بعض العرب نحو: مررت بهم الجماء الغفير، فهي حال معرفه لفظا منكرة معنى ومثل ذلك قول لبيد بن ربيعة:

فأوردها العراك ولم يذدها ولم يشفق على نغص الدخال[10]

فالعراك وقعت حالا معروفة مؤولة بنكرة أي أرسلها معتركة يعني

مزدحمة قال ابن عقيل«وزعم البغداديون ويونس أنه يجوز تعريف الحال مطلقا بلا تأويل فأجازوا: جاء زيد الراكب»[11]

وأجاز الكوفيون تعريف الحال إذا تضمنت معنى الشرط نحو زيد الراكب أحسن منه الماشي فالراكب والماشي حالان وتقديرهما زيدا ركب أحسن منه إذا مشى، فإذا لم تتضمن معنى الشرط لا يجوز تعريفها[12].

3.1 الشرط الجازم:

رأينا أن يونس يعلل ما سمعه عن العرب فهو متمسك بالسماع ويبني عليه قياسه، لكنه في بعض الأحيان يأتي بقياسات لا يعتمد فيها على السماع كما في الشرط الجازم إذا سبق بهمزة الاستفهام يقول سيبويه:« وأما يونس فيقول: أن تأتني آتيك، وهذا قبيح يكره في الجزء وإن كان في الاستفهام»[13].

فقبح سيبويه يونس من حيث أن أداة الاستفهام لا تغير في الكلام نحو : أمتى تشتمني أشتمك فالألف بمنزلة الواو و الفاء وليست كإذ وأشباهها، ويقيس سيبويه ذلك على صيغة: مررت بزيد فتقول أزيد. فهمزة الاستفهام لم تغير من زيد[14].

وهذا القياس الذي أتى به يونس هو من قياسه المتفرد فلا أدري ما هو الأساس الذي بنى عليه يونس رأيه هذا وليست لنا حجة بما له من كلام العرب، وربما قدر أصل الجملة هكذا: أآتيك إن تأتني؟ فيكون فعل جواب الشرط المجزوم مقدرا يفسره ما سبق.

4.1 الظرف:

وقد أشار سيبويه إلى هذا التفرد في الظرف عندما ذكر قياسا ليونس قائلا:« . . وأما يونس فكان يقول: من قدّام ويجعلها معروفة وزعم منعه من الصرف أنها مؤنثة. . وهذا مذهب إلا أنه ليس يقول أحد من العرب »[15].

5.1 حروف العرض:

وقد ربط يونس العلاقة بين المعنى والتركيب وذلك لإدراكه للقرينة اللفظية في جملة العرض يقول سيبويه:«وزعم يونس أنك تقول: هلاَ تقولَنَّ، وألا تقُولَن ّوهذا أقرب لأنك تعرض، فكأنك قلت: افعل لأنه استفهام فيه معنى العرض »[16].

والعرض هنا هو طلب بلين وتأدب[17]، وقد تستعمل هلا وألا للتحفيض أيضا وهو طلب فيه شدة وعنف والفرق بينهما يكون على أساس التنغيم والمعنى المطلوب أيضا.

6.1 إذن :

ومن الأقيسة التي تفرد بها يونس جواز إلغاء إذن إذا اتصل بها حرف عطف كالواو أو الفاء حيث يجوز في المضارع الرفع على الإلغاء والنصب إذا عملت والجزم عطفا يقول سيبويه:«وتقول: إن تأتني آتك وإذن أكرمك، إذ جعلت الكلام على أزله و لم تقطعه وعطفته على الأول؛ وإن

جعلته مستقبلا نصبت وإن شئت رفعته على قول من ألغى، وهذا قول يونس وهو حسن لأنك إذا قطعته من الأول فهو بمنزلة: فإذن أفعل، إذا كنت مجيبا رجلا»[18].

لقد استحسن سيبويه هذا الرأي ووصفه بالحسن، وجمع هذا الرأي في ثلاث حالات لإذن يقول المبرد:«وأعلم أنها إذا وقعت بعد واو أو فاء، صلح الإعمال فيها والإلغاء لما أذكره لك وذلك قولك : إن تأتني آتك وإذن أكرمك إن شئت رفعت وإن شئت نصبت وإن شئت جزمت، أما الجزم فعلى العطف على آتك وإلغاء إذن، والنصب على إعمال إذن والرفع على قولك: وأنا أكرمك ثم دخلت بين الابتداء والفعل فلم تعمل شيئا وهذه الآية في مصحف ابن مسعود: (**وإِذَنْ لاَ يَلْبَثُوا خلافَكَ**)[19] الفعل فيها منصوب بإذن التقدير والله أعلم- الاتصال بإذن وإن رفع فعلى أن الثاني محمول على الأول كما قال عز وجل: (**فَإِذَنْ لاَ يُؤْتُونَ النَّاس نَقيرَا**)[20] أي فهم إذن كذلك أي فهم ذلك »[21] فنلاحظ أن المبرد أقر ما قاله يونس و لم يكتفي بشرحه بل بسطه وأقام الدليل بالقراءات.

وذكر ابن يعيش نفس الشروط حين قال:

« وأما إذن فحرف ناصب أيضا... ولها ثلاثة أحوال:

أحدها: أن تدخل في الفعل في ابتداء الجواب فهذه يجب إعمالها لا غير نحو قولك إذن أكرمك في جواب أنا أزورك...

والثاني: أن يكون ما قبلها واو أو فاء فيجوز إعمالها وإلغاؤها وذلك قولك: زيد يقوم وإذن يذهب، فيجوز ههنا الرفع والنصب باعتبارين

مختلفين وأنك إن عطفت وإذن يذهب على بقوم الذي هو الخبر ألغي إذن من العمل وصار بمنزلة الخبر، لأن ما عطف على شيء صار واقعا موقعه، فكأنك قلت زيد إذن يذهب .. وأما الحالة الثالثة فإن تقع متوسطة لا محالة معتمدا ما بعدها على ما قبلها»[22].

إن هذه الإشارات تدل على قيمة آراء يونس بن حبيب النحوية التي اعتمدت كقواعد ثابتة عند النحاة المتقدمين والمتأخرين.

7.1 كم الاستفهامية :

ومن القياسات التي تفرد بها يونس أيضا نصب الاسم الذي يأتي بعد كم الاستفهامية يقول سيبويه: «وتقول كم مثله لك وكم خيرا منه لك وكم غيره لك كل هذا جائز حسن لأنه يجوز بعد عشرين فيما زعم يونس تقول كم غيره مثله لك، انتصب غير بكم وانتصب المثل لأنه صفة»[23]

وقد شرح المبرد أيضا هذه المسألة فقال:« واعلم كم اسم يقع على العدد ولها موضعان: تكون خبرا وتكون استفهاما مجراها مجرى عدد منون وذلك قولك كم رجلا عندك ؟ وكم غلاما لك ؟ تريد عشرون غلاما أم ثلاثون وما أشبه ذلك»[24].

ونطالع في مغنى اللبيب..أن تمييز الخبرية واجب الخفض وتمييز الاستفهامية منصوب، ولا يجوز جره مطلقا خلافا للفراء والزجاج وابن السراج وآخرين بل أن تجر كم بحرف جر فحينئذ يجوز في التمييز وجهان:

النصب وهو الكثير والجر خلافا لبعضهم، وهو بمن مضمرة وجوبا، لا بالإضافة خلافا للزجاج»[25].

فالنصب إذا وجب في كم الاستفهامية إذ لم تسبق بحرف جر وإذا سبقت فيجوز النصب والجر لكن النصب أكثر ونفس التفسير عند ابن مالك يقول ابن عقيل: .. وتكون استفهامية وخبرية فالخبرية سيذكرها، والاستفهامية يكون مميزها كمميز عشرين وأخواته فيكون مفردا منصوبا نحو كم درهما قبضت ويجوز جره بـــ من مضمرة وإن وليت كم حرف جر نحو: بكم درهم اشتريت هذا»[26].

8.1 نون التوكيد الخفيفة:

يقول سيبويه« وأما يونس وناس من النحويين فيقولون: اضربان زيدًا واضربنان زيدا فهذا لم تقله العرب، وليس له نظير في كلامها لا يقع بعد الألف ساكن إلا أن يدغم»[27].

في هذا المثال يخرج يونس عن الأساس الذي اتبعه في دراسته النحوية ويجرد القياس ويبدو أن هذا الرأي لم ينفرد به وحده بل أن هذا الرأي صدر عن نحاة آخرين لأن سيبويه لم ينسب هذا الرأي ليونس فقط بل أضاف وناس من النحويين ومن المؤكد أيضا أن هؤلاء النحويين من معاصري يونس.

والواقع أن يونس وإن كان رواية لأحد هؤلاء العلماء فإنه لا يتردد بالتصريح به أو أن تأتي بشاهد من كلام العرب ومما جاء عن المبرد أيضا :

«وكان يونس بن حبيب يرى إثباتها في فعل الاثنين وجماعة النسوة ويقول : اضربان زيدا وللنساء اضربنان زيدا فيجمع بين ساكنين ولا يوجد مثل هذا في كلام العرب إلا أن يكون الساكن الثاني مدغما والأول حرف لين»[28].

ويقول ابن عقيل : « لا تقع نون التوكيد الخفيفة بعد الألف، فلا تقول: اضرِبَانْ بنون مخففة، بل يجب التشديد فتقول اضربان بنون مشددة مكسورة خلافا ليونس، فإنه أجاز وقوع النون الخفيفة بعد الألف ويجب عنده كسرها» [29].

وقد نقل ابن الأنباري تعليلا للنون الخفيفة في فعل الاثنين وجمع المؤنث قائلا: «وقال الكوفيون ويونس من البصريين تدخل على التثنية وجمع المؤنث إذا كان أحد الساكنين ألفا لأن في الألف كثرة مد الصوت وكثرة مد الصوت تقوم مقام فاصل بين الساكنين»[30].

9.1 النداء :

لقد روى يونس بعض الآراء في مجال التعليل عن شيخه أبي عمرو بن العلاء قول بعضهم: يا أخانا زيدٌ وهو قول أهل المدينة قال سيبويه:«.. هذا بمنزلة قولنا يا زيد كما كان قوله يا زيد أخانا بمنزلة يا أخانا فيحمل وصف المضاف إذا كان مفردا بمنزلته إذا كان منادى، ويا أخانا زيدًا أكثر في كلام العرب»[31].

نلاحظ أن جملة يا أخانا يا زيد على أساس البدل وجملة يا أخانا يازيدا على أساس الصفة يقول ابن سراج في ذلك:« واعلم أن المضاف إذا وصفته بمفرد لم يكن إلا نصبا وذلك قولهم يا عبد الله العاقل فأما البدل فيقوم مقام المبدل منه وتقول يا أخانا زيد أقبل فإن لم ترد البدل وأردت البيان فحكمه حكم الصفة، تقول يا أخانا زيدًا أقبل»[32] .

و لم يعترض سيبويه على تعليل يونس ولكنه اكتفى بالإشارة إلى أن هذه اللغة قليلة وأما المطرد في كلام العرب فهو يا أخانا زيدا.

إلا أنني لا أعلم على وجه الدقة أكان هذا التعليل ليونس أو لشيخه أبي عمرو في اعتقادي أن هذا الرأي من الآراء التي اتفق فيها الرجلان.

10.1 العطف على المبتدإ :

وذلك في قوله تعالى: (**إن الله بريء من المشركين ورسولُه**)[33] فقد حمل يونس الرفع في رسوله على الله قبل دخول أنّ يقول سيبويه:« فابتدأ لأن معنى الحديث حين قال : إن زيدا منطلق ولكنه أكد بأن كما أكد فأظهر زيدا وأضمره ، والرفع قول يونس»[34] .

فقد بنى يونس قياسه في هذا التعليل على قاعدة الأصل والفرع، فالأصل هو الجملة : **زيد منطلق** والفرع هو جملة : **إن زيدا منطلق.**

إن هذا التعليل يشبه إلى حد بعيد قانون التحويل فوجه الرفع في رسوله موجود في البنية العميقة وليس في البنية السطحية :

البنية العميقة : **زيد منطلق**

البنية السطحية : **إن زيدا منطلق**

11.1 جمع التكسير

ذهب يونس إلى أن ما كان مؤنث من فعل فإنه يكسر على أفعل في بناء أدنى العدد وذلك في مثل دار- أدور — ساق — أسوق - نار — أنور ، جاء في الكتاب «هذا قول يونس ونظنه إنما جاء على نظائره في الكلام نحو جمل وأجمل وزمن وأزمن وعصى وأعص»[35].

ويبدو أن يونس لم يعلل ذلك وهذا أيضا من الآراء التي اكتفى فيها يونس بذكر المسألة النحوية دون الإشارة إلى أي تعليل يذكر.

12.1 النسب :

وقد نقل سيبويه رأيا آخر ليونس حين قال:«وأما يونس فكان يقول في ظبية ظبوي وفي دمية دموي وفي فتية فتوي»[36] وقد علق ابن جني على ذلك بقوله:.. ومن ذلك قولك في الإضافة إلى مائة في قول سيبويه ويونس جميعا في ردّ اللام : مئويّ — كمعويّ ... وأما مذهب يونس فإنه كان إذا نسب إلى فعله أو فعلة مما لامه ياء أجراه مجرى ما أصله فعله فعلة ألا تراه كيف يقول في الإضافة إلى ظبية ظبوي ويحتج بقول العرب في النسب إلى بطية بطوي وإلى زينة زنوي فيقاس هذا أن تجري مائة»[37].

13.1 النسب إلى الأخت:

يرى سيبويه أن القياس في الإضافة إلى الأخت أخوي وما جاء به يونس أختي وعارض سيبويه هذا الرأي لأنه ليس على القياس واستشهد

بقول الشاعر:

أرى ابن نزار قد جفاني ومني على هنوات كلها متتابع

فهنوات جمع هنة وهي بمنزلة أخت وإذا أضفنا [أي نسبنا] إلى هنة قلنا هنوي كذلك في أخت أخوي[53] وهذا أيضا من القياسات المتفردة عند يونس ابن جني:«وأما قول يونس: بنتي وأختي فمردود عند سيبويه و ليس هذا الموضع بموضع للحكم بينهما، وإن كان لقول يونس أصول تجتذبه وتسوغه»[39]

ونلاحظ أن يونس يعتبر تاء أخت أصلية ولذلك فهو لا يحذفها في النسب وأما تاء **هنة** تلقب هاء في الوقف هنه ولا يجوز ذلك في أخت فلا يقال **أُخه** ومن ثم فإن التاء فيهما تختلف ولا يجوز حمل تاء **أخت** على التاء هنة عند يونس.

2. الافتراض :

الافتراض أحد وسائل التعليل عند يونس ومعاصريه، فقد كانوا يفترضون مسائل ويعللونها معتمدين في ذلك على ملكاتهم وقدراتهم والغرض من ذلك توسيع القاعدة على كل الاحتمالات حتى لا تبقى ثغرة في مجال وضع القواعد وأكثر ما كان هذا الافتراض في الأسماء التي لا تصرف وهي:

1.2 تسمية الرجل بالفعل :

قال سيبويه:«زعم يونس أنك إذا سميت رجلا يضارب من قولك:ضاربْ

وأنت تأمر فهو مصروف وكذلك إن سميته ضارب وكذلك ضرب وهو قول أبي عمرو والخليل»[40].

فهذا قياس من الأقيسة التي تعتمد على الافتراض ووضع الاحتمال.

2.2 تسمية الرجل باسم الحيوان:

جاء في الكتاب:«ولو سميت رجلا بسرحان فحقدته لقلت سريحين وذا قول يونس وأبي عمرو»[41].

3.2 تسمية المرأة باسم الرجل :

قال سيبويه : فإن سميت المؤنث بعمرو أو زيد لم يجز الصرف هذا قول ابن أبي إسحاق وأبي عمرو فيما حدثنا يونس هو القياس»[42].

4.2 تسمية الرجل بالحروف :

لقد روى يونس ضرب من منا و إن كان هذا ليس افتراضا إذ أنه سمعه من بعض العرب وكان يونس يقيس منه على أية فيقول منةٌ منةً منةٍ[43].

خـــاتـــمـــة:

يمكننا أن نستنتج من كل ما سبق أن ليونس نظرة عميقة في تعليله النحوي فهو يعلل ما سمعه من كلام العرب ولو كان شاذا فلا يهمله بل يبحث له عن الأسباب التي أدت به إلى الرفع أو النصب أو الجر دون أن يعطي حكما للرداءة، فهو إذن تعليل الأثر المسموع وعلى هذا فالقياس النحوي عند يونس لا يتعدى حدود السماع وإن كان نادرا ما يميل إلى تجريد القياس فيأتي بقياس لا وجود لنظيره في كلام العرب.

وقد اعتمد سيبويه على كثير من آرائه لا سيما التي تتعلق بالجانب الصرفي فقد أفرد له أبوابا من الكتاب ومرجع ذلك ميل يونس إلى الجوانب اللغوية ومما يدل على أن سيبويه اعتمد على كثير من آرائه قوله:«والذي ذكرت في جميع ذا قول يونس»[44] « وذا قول يونس وأبي عمرو»[45] «و جميع ما ذكرت لك في هذا الباب وما أذكر لك في الباب الذي يليه قول يونس»[46].

الهوامش:

1 – ينظر سيبويه : الكتاب 292/1

2 – ينظر الاستنباط، ميشال زكريا: الألسنية علم اللغة الحديث ص 16.

3 – المرجع نفسه، ص 58.

4 –سورة القيامة الآية 4.

5 –سيبويه: الكتاب 1/346.

6 –سورة سبأ الآية 12.

7 – المصدر السابق : 1/435.

8 – المصدر نفسه 1/435 ينظر الهامش.

9 - ينظر المصدر نفسه 2/76

10 – ينظر أبي عقيل : شرح ألفية ابن مالك 1/630.

11- المصدر نفسه 1/631.

12 – المصدر نفسه 1/631.

13 – سيبويه : الكتاب 3/83.

14 – نفس المصدر والصفحة

15 – المصدر نفسه ص 3/291.

16 – المصدر نفسه 2/514.

17 – ابن هشام:المغنى 1/451

18 – سيبويه، الكتاب 3/51.

19– سورة الإسراء، الآية 76.

20 – سورة النساء، الآية 5..

21 – المبرد ،المقتضب، تحقيق عبد الخالق عضيمة عالم الكتب بيروت 2/11

22 - ابن يعيش، شرح المفصل

23 – سيبويه: الكتاب 2/159.

24 – المبرد،المقتضب، 3/55.

25 – ابن هشام: مغنى اللبيب 1/313

26 – شرح ابن عقيل : 2/420

27 – سيبويه : الكتاب 3/527.

28 – المبرد : المقتضب 3/24.

29 – شرح ابن عقيل :

30 – ابن الأنباري : الإنصاف مسألة 94.

31– المصدر السابق 2/185.

32 – ابن السراج : الموجز في النحو ص 44

33 – سورة التوبة الآية 3.

34 – سيبويه : الكتاب 1/238.

35 – المصدر نفسه 3/491

36 – المصدر نفسه 3/347

37– ابن جني : الخصائص 2/106

38 – سيبويه : الكتاب 3/361

39– الخصائص 1/201.

40 – المصدر السابق 2/422.

41– المصدر نفسه 3/206

42 – المصدر نفسه3/242.

43 – المصدر نفسه 2/410.

44– المصدر نفسه 3/422

45– المصدر نفسه 3/423

46 – المصدر نفسه 3/423

تأصيل عوارض التركيب النحوي

د. حنـــفي بن أحمد بدوي علي

مدرس العلوم اللغوية ـــ قسم اللغة العربية

كلية الآداب بالكُفـْـرَة جامعة قار يونس

(ليبيا)

مقدمة :

يعد بناء الجملة العربية نظاماً متناسقاً له قواعده التي تحكم تراكيبه ومكوناته، تلك التراكيب التي تسير على نسق متعارف عليه بين علماء العربية، هذه المكونات أو القواعد قد استنبطت من الاستقراء الدقيق للمنطوق والمسموع والمكتوب من كلام العرب نثراً وشعراً في فترة الاحتجاج اللغوي ، تلك الفترة الزمنية المأطرة بإطار مكاني ليجتمع الزمان والمكان في تشكيل القواعد التركيبية للنحو العربي، ولكن قد يعرض لبناء الجملة العربية عارض في هذا التركيب النحوي ؛ فقد يحذف من التركيب ما حقه الذكر، أو تحل كلمة مكان كلمة أخرى، أو تختلف الرتبة الأصلية في بناء الجملة فيتقدم ما حقه التأخير، و يتأخر ما حقه التقديم، وكذلك قد يدخل في بناء الجملة حرف زائد على تركيبها الأصلي لغرض دلالي.

هذه العوارض في التركيب النحوي لا تأتي اعتباطيةً في الجملة؛ بل تأتي لهدف يقصده المتكلم باللغة ليفهمه المتلقي على وجه معين، يساهم في هذا الفهم الأسلوب والتركيب اللغوي، والتلقي،وسياق الكلام العام.

ولكي نفهم هذه العوارض، ونعرف مواضعها في التركيب النحوي لابد من الرجوع إلى التراث النحوي العربي. وقد قام البحث على تأثيل نحوي لبعض عوارض التركيب، وهي:

الحذف ــ الزيادة ــ الإحلال .

حيث يحاول البحث الرجوع إلى التراث النحوي لتأصيل تلك العوارض التركيبية في بناء الجملة العربية.

الحذف

الحذف لغة:

ذكر الخليل في كتابه العين "الحذف قطع الشيء من الطرف، كما يحذف طرف الشاة".

والحذف: الرمي عن جانب والضرب عن جانب. وتقول حذفني فلان بجائزة، أي وصلني."[1]

وذكر ابن منظور" حذف الشيء يحذفه حذفاً ، قطعه من طرفه ..."[2]

حذف الشيء إسقاطه، وحذفه بالعصا رماه بها، وحذف رأسه بالسيف إذا ضربه فقطع من قطعة."[3]

الحذف عند النحاة العرب:

غاية تركيب الجملة عند النحاة إعطاء فائدة يحسن السكوت عليها[4]، وهذا لا يتم إلا بالإسناد، أي: وجود طرفين أساسيين في الجملة، هما: المسند والمسند إليه .[5]

والمسند والمسند إليه اللذان يمثلان ركني الجملة الأساسية، قد تلحقهما أحوال من الذكر والحذف لأغراض بلاغية.[6]

ويرى ابن السراج أن الحذف يختص بحالة إسقاط العامل وإبقاء المعمول على ما كان له من حكم إعرابي، فإن تغير الحكم الإعرابي بعد الحذف دل عليه باصطلاح آخر هو الاتساع."[7]

والحذف الذي يلزم النحوي النظر فيه هو ما اقتضته الصناعة، وذلك بأن تجد خبراً بدون مبتدأ، أو مبتدأ بدون خبر، إلى غير ذلك من مواضع الحذف في الجمل والتراكيب."[8]

وعلى هذا فالحذف هو إسقاط لبعض المفردات والجمل الموجودة بالتركيب بحث يستقيم المعنى، ولا ينقص من البلاغة شيئاً، بل لو ظهر المحذوف لنزل قدر الكلام عن بلاغته، وأبعد عنه الحسن. والحذف من مظاهر التأويل ينبع من محاولة النحاة تقييم النصوص التي يجب قبولها، و لم تتفق تماماً مع ما تفرضه القواعد والأصول من أحكام عامة، وذلك عن طريق افتراض أبعاد في النص غير موجودة فيه للتوفيق بين الشروط التي تفرضها القواعد النحوية، والواقع اللغوي للنصوص المختلفة.

وقد بين عبد القاهر الجرجاني القيمة البلاغية للحذف بقوله: "هو باب دقيق المسالك لطيف المأخذ عجيب الأمر شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، ونجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبن ".[9]

والحذف من الظواهر اللغوية التي ضمنها النحاة في كتبهم وإن لم يخصوها بباب مستقل من الأبواب النحوية ، فقد تحدثوا في كتبهم عن الأصلية والفرعية، فأعدوا ورود الكلام بغير حذف أي: الذكر أصلاً، وجعلوا الحذف فرعاً عن هذا الأصل، يقول سيبويه في باب ما يكون في اللفظ من الأغراض: " اعلم أنهم مما يحذفون الكلم وإن كان أصله في الكلام غير ذلك، ويحذفون ويعوضون، فما حذف وأصله في الكلام غير ذلك: لم يك، ولا أدر وأشباه ذلك ".[10]

والحذف عند القدماء أفصح وأجود في الكلام من الذكر نرى ذلك جلياً في كلام عبد القاهر الجرجاني السابق، الذي يوضح فيه فصاحة الحذف في موضعه، وجودته في الإفادة .[11]

والمدقق في كلام النحاة القدماء يجدهم يستخدمون عند حديثهم عن الحذف مصطلحين، هما الحذف والإضمار[12]. والواقع اللغوي يشهد بأن الحذف والإضمار يستعملان بمعنى واحد عند النحاة ابتداء من سيبويه، ولا توجد تفرقة دقيقة تراعي في استعمالها باستثناء إضمار الفاعل الذي يسمونه حذفاً.[13]

وللحذف تتصل بالمعنى، وأغراض تتصل بالصناعة النحوية، وهذه الأغراض تحدث عنها العرب القدماء في كتبهم، ومن هذه الأغراض التي يرمي إليها الحذف في الكلام: الإيجاز، والاختصار في الكلام، والاتساع، والتفخيم، والإعظام، وصيانة المحذوف عن الذكر تشريفاً، أو تحقير شأن المحذوف، وقصد البيان بعد الإبهام، وقصد الإبهام، والجهل بالمحذوف، والعلم الواضح بالمحذوف، والخوف منه أو عليه، والإشعار باللهفة، ورعاية الفاصلة، أو المحافظة على السجع، والمحافظة على الوزن في الشعر.[14]

والعامل المشترك في ذلك كله إذا كان المذكور من تركيب الجملة دالاً على المحذوف منها، نرى ذلك في قول الخليل بن أحمد: " ومن شأن العرب الإيجاز والاكتفاء بالقليل عن الكثير إذا كان ما بقي دالاً على المعنى ".[15]

واهتم البلاغيون بقضية الحذف وعلاقتها بالدلالة، فنرى عبد القاهر الجرجاني يشير إلى أهمية الحذف في بلاغة الكلام والرقي بمستواه الدلالي، فيقول :"اعلم أن هاهنا باباً من الإضمار والحذف يسمى الإضمار على شريطة التفسير، وذلك مثل قولهم: أكرمني وأكرمت عبد الله ... ومن لطيف ذلك قول البحتري :

لو شئت لم تفسد سماحة حاتم كرماً و لم تهدم مآثر خالد .

الأصل لا محالة: لو شئت أن لا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها، ثم حذف ذلك من الأول استغناء بدلالته في الثاني عليه ... إن الواجب في

حكم البلاغة أن لا ينطق بالمحذوف، ولا يظهر إلى اللفظ، فليس يخفى أنك لو رجعت فيه إلى ما هو أصله، فقلت: لو شئت أن لا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها، صرت إلى كلام غث وإلى شيء يمجه السمع وتعافه النفس." [16]

فعبد القاهر يربط هنا بين الحذف ووضوح المعنى لدى المتلقي، وإلا صار كلاماً غثاً، والحذف يضيف معان دلالية عن طريق التحويل، وبذلك يكون عبد القاهر وغيره من البلاغيين قد فطنوا على الطاقات التعبيرية التي تمتلكها التراكيب اللغوية، وذلك عندما أكدوا على معاني النحو، التي تكشف عن هذه الطاقات، وكان هذا نتيجة للمفهوم المتطور لمصطلح النحو الذي ربط بين قواعد اللغة والمعنى.

شروط الحذف:

لا يتم الحذف ويؤدي الغرض منه إلا بشروط من أهما:

1ـــ وجود قرينة على المحذوف سواء أكانت قرينة لفظية أو عقلية، ويكون ذلك في حذف الجملة أو أحد ركنيها، بحيث يتمكن من معرفته، أما إذا كان المحذوف فضلة فلا يشترط لحذفه وجود الدليل لأنه يدرك من التركيب.

2ـــ ألا يكون ما يحذف كالجزء من المذكور، فلا يحذف الفاعل ولا نائبه، ولا شبيهه ويبقى الفعل؛ لأنهما متلازمان، ولا خلاف في جواز حذف الفعل مع فاعله.

3ـــ ألا يؤدي حذفه إلى اختصار المختصر، فلا يحذف اسم الفاعل دون معموله لأنه اختصار للفعل.

4ـــ ألا يكون عوضاً عن شيء، فلا تحذف "ما" في (أما أنت منطلقاً انطلقتُ).

5ـــ أن يكون عاملاً ضعيفاً، فلا يحذف الجار والمجرور، والناصب للفعل إلا في مواضع قويت فيها الدلالة على المحذوف وكثر فيها الاستعمال.[17]

وتحدث السيوطي عن ميل العرب إلى الإيجاز و الاختصار في كلامهم ن كما تحدث عن الأبواب النحوية التي يرد فيها الاختصار.[18]

أنواع الحذف :

يكثر الحذف في التراكيب النحوية للغة العربية، وينقسم إلى قسمين:

أحدهما: حذف الجمل، والآخر: حذف المفردات.[19]

هذا ويشيع الحذف ومظاهره في معظم أبواب النحو العربي؛ وذلك لأن العرب " قد حذفت الجملة والمفرد والحرف والحركة وليس من شيء من ذلك إلا من دليل عليه وإلا كان فيه ضرب من تكلف علم الغيب في معرفته ".[20]

ويؤكد ابن الشجري على أهمية الحذف بقوله: " الحذف اختصاراً من أفصح كلام العرب؛ لأن المحذوف كالمنطوق به من حيث كان الكلام مقتضياً له."[21]

أسباب الحذف :

لأن اللغة هي التعامل بالكلمات ومهمتها حدوث التفاهم بين الجماعة اللغوية؛ لهذا فإن الموقف اللغوي إذا فهم بمجرد ذكر بعض عناصره اللغوية دون البعض الآخر، جاز الاستغناء عن بعض هذه العناصر من هذا المنطوق.[22]

من الأسباب التي الاعتماد على الذكاء العقلي لدى العربي متكلماً وسامعاً، فتخلف الذكاء لدى أحدهما يعيق الاختصار، والمتصفح للتراث اللغوي والنحوي يجد تأكيدات من علماء كثيرين على أنه لا يجوز الحذف دون علم المخاطب بما حدث في الكلام وكذلك إدراك المتكلم بما يفعل، وإلا سيكون الأمر اعتباطياً لا طائل وراءه ولا فائدة منه ن فمثلاً يشترط سيبويه أن يأتي الاتساع أو الاختصار أو الحذف على سعة الكلام والإيجاز لعلم المخاطب بالمعنى.[23]

ولا يغفل العربي أثناء حديثه الجانب النفسي للمستمع، فمن الأسباب التي تدفع إلى الحذف في التركيب النحوي تحقيق الراحة للمتكلم، والسامع وذلك عن طريق توفير الجهد والوقت في توصيل المعاني المنشودة بألفاظ محدودة، وفي ذلك يقول ابن جني: "لأنهم قد يستعملون من الكلام ما غيره أثبت في نفوسهم، سعة في التفسح وإرخاء للتنفس ....[24]

مواضع الحذف في التركيب النحوي:

تتعد أشكال الحذف في التركيب النحوي للجملة العربية لأغراض مختلفة، وفي مواضع متعددة، نذكرها فيما يأتي :

حذف المبتدأ :

الحذف جوازاً:

1ـــ يكثر ذلك في جواب الاستفهام، نحو: " وما أدراك ما الحطمة نار الله". أي :هي الله ، "وما أدراك ما هي نار حامية".

2 ـــ بعد فاء الجزاء، نحو: " من عمل صالحاً فلنسه ومن أساء فعليها"، أي: فعمله لنفسه، وإساءته عليها. "وإن تخالطوهم فإخوانكم"، أي: فهم إخوانكم.

3 ـــ بعد القول نحو: "وقالوا أساطير الأولين"، "إلا قالوا ساحر أو مجنون"، "سيقولون ثلاثة ".

4ـــ بعد ما الخبر صفة له في المعنى، نحو: "التائبون العابدون "، ونحو "صم بكم عمي".[25]

حذف المبتدأ وجوباً:

يحذف المبتدأ وجوباً في مواضع هي:

1ـــ النعت المقطوع إلى الرفع في مدح "مررت بزيدٍ الكريمُ"، أو ذم، نحو: "مررت بزيدٍ الخبيثُ"، أو ترحم، نحو: "مررت بزيد المسكينُ".

2 ـــ أن يكون الخبر مخصوص نعم وبئس، نحو: نعم الرجل زيد، وبئس الرجل عمرو.

3 ـــ ما كان الخبر فيه صريحاً في القسم ، نحو: "في ذمتي لأفعلنَّ " .

4 ـــ أن يكون الخبر مصدراً نائباً مناب الفعل، نحو: "صبر جميل ".[26]

حذف الخبر :

قد يحذف الخبر لدلالة السياق عليه في مواضع:

1ـــ في جواب الاستفهام، مثل أن يقال: من عندكما؟ فتقول: زيد، التقدير: زيد عندنا.

2ـــ بعد إذا الفجائية، مثل: خرجت فإذا السبع، التقدير: فإذا السبع حاضر.

3ـــ بدلالة الكلام نحو قول الشاعر :

نحن بما عندنا، وأنت بما عندك راض والرأي مختلف.

التقدير: " نحن بما عندنا راضون ".[27]

حذف الخبر وجوباً:

يحذف الخبر وجوباً في مواضع:

1ـــ أن يكون خبراً بعد "لولا" نحو: "لولا زيد لأتيتك"، التقدير: "لولا زيد موجود لأتيتك".

2ـــ أن يكون المبتدأ نصاً في اليمين، نحو: "لعمرك لأفعلنَّ "، التقدير: "لعمرك قسمي".

3ـــ أن يقع بعد المبتدأ واو هي نص في المعية، نحو: "كل رجل وضيعته"، فكل مبتدأ، وقوله "وضيعته" معطوف على كل، والخبر محذوف، والتقدير: كل رجل وضيعته مقترنان " ويقدر الخبر بعد واو المعية .

4ـــ أن يكون المبتدأ مصدرًا، وبعده حال سدت مسد الخبر، وهي لا تصلح أن تكون خبراً؛ فيحذف الخبر وجوباً؛ لسد الحال مسده، وذلك نحو: "ضربي العبد مسيئًا".[28]

حذف المضاف :

الدلالة على المنطوق يتكفل بها التركيب المنطوق، وانتماؤه إلى نموذج معين هو البنية الأساسية، والاعتماد على الموقف الكلامي أو المقام.[29]

إذن المعول عليه في فهم المحذوف هو السياق، ومما يجوز حذفه في الكلام اعتمادًا على السياق المضاف، ومن ذلك قول النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ حين سئل "وإن لنا في البهائم أجراً ؟ قال: في كل كبدة رطبة أجرًا". والمعنى "في كل ذات كبدة رطبة أجرًا".[30]

حذف المضاف إليه :

يكثر حذف المضاف إليه في ياء المتكلم مضافاً إليها المنادى، نحو: رب اغفر لي،

وفي الغايات ، نحو: لله الأمر من قبل ومن بعد، أي من قبل الغلب ومن بعده .

وفي أي وكل وبعض وغير بعد ليس .[31]

حذف الموصول الاسمي:

ذهب الكوفيون والأخفش إلى إجازته وتبعهم ابن مالك، وشرط في بعض كتبه كونه معطوفًا على موصول آخر، ومن حجتهم: " آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم"، وقول حسان :

أمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء.

أي: والذي أنزل إليكم، ومن يمدحه.[32]

حذف الصلة:

يجوز قليلاً لدلالة صلة أخرى عليه كقول الشاعر:

نحن الألى فاجمع جموعك ثم وجههم إلينا .

أي : نحن الألى عُرفوا بالشجاعة .[33]

حذف الموصوف :

يجوز حذف الموصوف اعتمادًا على السياق، ومنه قوله ـــ تعالى ـــ : "وألنا له الحديد أن اعمل سابغات"، أي: دروعًا سابغات .[34]

حذف الصفة :

ومنه قوله ـــ تعالى ـــ: "يأخذ كل سفينة غصبًا"، أي: صالحة؛ بدليل أنه قرئ بذلك.35

حذف المعطوف:

ويجب أن يتبعه العاطف، نحو: "لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل"، أي ومن أنفق من بعده، دليل التقدير أن الاستواء إنما يكون بين شيئين، ودليل المقدر "أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا". ومنه: " فمن كان مريضًا أو به أذى من رأسه ففدية"، أي: فحلق ففدية.[36]

حذف المعطوف عليه:

منه قوله ـــ تعالى ـــ: "أن اضرب بعصاك الحجر فانفجرت"، أي: فضرب فانفجرت.[37]

حذف الفعل :

يحذف الفعل وحده أو مع مضمر مرفوع أو منصوب أو معهما في مواضع هي:

1ـــ يطرد حذفه مفسرًا، نحو: "وإن أحد من المشركين استجارك فأجره"، " وإذا السماء انشقت".

2ـــ ويكثر في جواب الإستفهام، نحو: "ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولنَّ اللهُ"، أي: ليقولن خلقهم الله، ونحو: "وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا خيرًا".

3ـــ ويكثر حذف القول اعتمادًا على فهم المخاطب، نحو: " والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم".

4ـــ قد يحذف الفعل من الكلام لدلالة السياق عليه، واختصارًا للكلام، ومنه: "انتهوا خيرًا لكم"، أي: انتهوا وأتوا خيرًا.[38]

حذف المفعول به:

يكثر حذف المفعول به في التركيب النحوي في مواضع، هي:

ـــ بعد "لو شئت"، نحو: " فلو شاء لهداكم" ، أي: لو شاء هدايتكم.

ـــ بعد نفي العلم، نحو: "ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون"، أي:إنهم السفهاء، ونحو: ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون".

ـــ وعائداً على الموصول، نحو: "أهذا الذي بعث الله رسولاً".

ـــ وحذف عائد الموصول، كقوله:

وما شيء حميت بمستباح

ـــ وعائد المخبر عنه، كقوله:

فثوب لبست وثوب أجر

ـــ ويجوز حذف مفعولي أعطى، نحو: "فأما من أعطى".

وثانيهما فقط ن نحو:" ولسوف يعطيك ربك" ، و أولهما فقط ، نحو:" حتى يعطوا الجزية " .[39]

حذف الحال :

أكثر ما يرد ذلك النوع من الحذف إذا كان قولاً أغنى عنه المقول ، نحو:

" والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم " ، أي: قائلين ذلك.

ومثله :"وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا".[40]

حذف التمييز:

يكثر مع " كم " الاستفهامية ، وكذلك تمييز العدد ، نحو:كم صمت؟ أي: كم يوماً ، وقاله ت تعالى ـــ :"عليها تسعة عشر" ، " وإن يكن منكم عشرون صابرون ".[41]

حذف الاستثناء:

يكثر ذلك بعد "إلا" و"غير" مسبوقتين بـــ " ليس"، يقال :قبضت عشرة ليس إلا، أو ليس غير.[42]

حذف الجار:

يكثر ويطرد مع "أنَّ" ، و"أن" ، نحو: "يمنون عليك أن أسلموا "، أي: بأن أسلموا، ومثله: " بل الله يمن عليكم أن هداكم " ، " والذي أطمع أن يغفر لي" ، "ونطمع أن يدخلنا ربنا" ، " وأن المساجد لله"، أي: ولأن المساجد لله. وجاء في غيرها، نحو: " قدرناه منازل"، أي: قدرنا له منازل، "ويبغونها عوجاً "، أي: يبغون لها العوج .[43]

حذف حرف النداء:

يكثر ذلك اعتماداً على السياق وفهم المتلقي، نحو: " أيها الثقلان" ، "يوسف أعرض عن هذا" ، "أن أدوا غلي عباد الله".[44]

حذف جملة القسم:

وهو لازم مع غير الباء من حروف القسم، وحيث قيل: لأفعلنَّ، أو لقد فعل، أو لئن فعل، و لم يتقدم جملة قسم فثم جملة قسم مقدرة، نحو: "لأعذبنَّه عذاباً شديداً "، "ولقد صدقكم الله وعده".[45]

حذف جواب القسم:

يجب حذف جواب إذا تقدم عليه أو اكتنفه ما يغني عن الجواب، الأول، نحو: زيد قائم والله. والثاني، نحو: زيد والله قائم، فإن قلت: زيد والله إنه قائم، أو لقائم احتمل كون المتأخر عنه خبراً عن المتقدم عليه، واحتمل كونه جوابًا وجملة القسم وجوابه الخبر.

ـــ ويجوز في غير ذلك، نحو: "والنازعات غرقـًا"، أي: لتبعثن، بدليل ما بعده، وهذا المقدر هو العامل في يوم ترجف الراجفة.[46]

حذف جملة الشرط :

وهو مطرد بعد الطلب، نحو: "فاتبعوني يحببكم الله "، أي فإن تتبعوني يحببكم الله.[47]

حذف جملة جواب الشرط:

وذلك واجب إن تقدم عليه، أو اكتنفه ما يدل على الجواب، فالأول نحو: هو ظالم إن فعل، والثاني ، نحو: هو إن فعل ظالم ، "وإنا إن شاء الله لمهتدون ".

ويجوز حذف الجواب في غير ذلك، نحو: "فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض"، أي: فافعل، "ولو أن قرآناً سيرت به الجبال" أي: لما آمنوا به، بدليل "وهم يكفرون بالرحمن".[48]

حذف الكلام بجملته:

يقع ذلك باطراد في مواضع:

ـــ بعد حرف الجواب، يقال: أقام زيد ، فتقول: نعم.

ـــ بعد نعم وبئس إذا حذف المخصوص، وقيل إن الكلام جملتان، نحو: "إنا وجدناه صابراً نعم العبد".

ـــ بعد إن الشرطية، نحو:

قالت بنات العم يا سلمى وإن كان فقيرًا معدمًا قالت وإن.

أي: وإن كان كذلك رضيته.

ـــ في قولهم "افعل هذا إما لا "، أي: إن كنت لا تفعل غيره فافعله.[49]

حذف المتعجب منه:

يجوز حذف المتعجب منه وهو المنصوب بعد أفعل، والمجرور بعد أفعل به إذا دل عليه دليل، فمثال الأول قوله:

أرى أم عمر دمعها قد تحدرا بكاء على عمر وما كان اصبرا .

التقدير، وما كان أصبرها، فحذف الضمير وهو مفعول أفعل للدلالة عليه بما تقدم.

ومثال الثاني قوله ـــ تعالى ـــ: "أسمع بهم وأبصر"، التقدير ـــ والله أعلم ـــ وأبصر بهم، فحذف "بهم " لدلالة ما قبله عليه.[50]

الزيادة

الزيادة لغة: النمو وبابه باع، وزيادة أيضًا وزاده الله خيرًا. يقال زاد الشيء وزاده غيره فهو لازم ومتعد إلى مفعولين، وقولك: زاد المال درهمًا، والبُر مُدًا ، فدرهمًا ومدًا تمييز.[51]

الزيادة والمزيد والزيدات: بمعنى، والأخير شاذ... وهي النمو، وزاده الله خيرًا، زيَّده فزاد وازداد ... [52]

زاد الماء والمال وازداد، وازددت مالاً. وزاد الأمر صعوبة. وازداد من الخير ازديادًا، وزاده الله مالاً، وزاد في ماله، وزاد على ما أراد، وزاد على الشيء ضعفه. وأخذته بدرهم فزائدًا . واستزاد: طلب الزيادة ... وتقول: الولد كبد ذي الولد، وولد الولد زيادة الكبد؛ وهي قطعة معلقة بها، وجمعها زياد. ويقال: إن زكيت مالك زيَّد، أي: زاد كثيرًا.[53]

الزيادة عند النحاة :

تنقسم الزيادة إلى زيادة الاسم، نحو: ضمير الفصل، وزيادة الفعل، نحو زيادة "كان"، وزيادة الحرف، نحو زيادة اللام، والباء، وزيادة الجملة، نحو زيادة " ظن" إذا توسطت. يقول ابن السراج:" والتي تلغى تنقسم إلى أربعة أقسام:اسم، وفعل، وحرف، وجملة، الأول: الاسم، وذلك نحو: "هو" إذا كان الكلام فصلاً، فإنه لا موضع له من الإعراب، ولو كان له موضع لوجب أن يكون له خبر إن كان مبتدأ، أو يكون له مبتدأ عن كان هو خبرًا.

الثاني: الفعل، ولا يجوز عندنا أن يلغى فعل ينفذ منك إلى غيرك، ولكن الملغى نحو "كان" في قولك: "ما كان أحسن زيدًا"، والكلام: ما أحسن زيدًا، و"كان" إنما جيء بها لتبين أن ذلك كان فيما مضى.

الثالث: الحرف، وذلك نحو: "ما" في قوله عز وجل : " فبما نقضهم ميثاقهم" {سورة النساء :155}، لو كان لـــ "ما" موضع من الإعراب ما عملت الباء في " نقضهم "، وإنما جيء بها زائدة للتأكيد.

الرابع: الجملة، وذلك نحو قولك: " زيد ظننت منطلق"، بنيت "منطلق" على " زيد" و لم تعمل "ظننت" وألغيته وصار المعنى "زيد منطلق في ظني" فإن قدمت "ظننت" قبح الإلغاء، ومن هذا الباب الاعتراضات ، وذلك نحون قولك : زيد ـــ أشهد بالله ـــ منطلق.[54]

وبالنظر في كلام ابن السراج نراه يجعل الجملة الاعتراضية من الزيادة، وذلك في قوله: " ومن هذا الباب الاعتراضات". وهذا قول فيه نظر،

فالصحيح أن الجملة الاعتراضية لا تعد مكن قبيل الزيادة، بل من وسائل استطالة التركيب، أي أن الاعتراض "وسيلة من وسائل طول الجملة الأصلية وتركبها ن فكل ما يتعلق بالجملة يعد منها وغن لم يكن له موضع من الإعراب ... وعند التحليل النحوي لجملة تحتوي في داخلها على جملة اعتراضية لا يمكن بحال أن نغفل هذه الجملة الاعتراضية، ولأنها شئنا أم أبينا جزء من الجملة الأصلية.[55]

اختلف النحاة البصريون والكوفيون في تسمية كثير من المصطلحات النحوية في أبواب النحو المختلفة، ومن ذلك اختلافهم في تسمية "الزيادة"، "فالكوفيون يسمونها الصلة، والحشو، والتوكيد، والسقوط، واللغو، كما هو الحال عند الفراء. [56]

أما البصريون فيطلقون عليها الزيادة، والإلغاء، أو اللغو. [57]

وتدخل الزيادة في الكلام العربي شعرًا أم نثرًا، وعلماء العربية عند الحديث عن الزيادة في القرآن الكريم يسمونها صلة، كما عند الزركشي والطبري. [58]

زيادة الحروف:

الزيادة إحدى طرق الاتساع في التركيب، حيث إن زيادة عنصر ما في التركيب يؤدي إلى ثراء الجانب الدلالي. والزيادة تدخل الحروف أكثر من الأفعال والأسماء، وذكر ابن يعيش " أن الحروف التي تزاد ستة وهي: من ، والباء ، وما ، ولا ، وإن المكسورة الساكنة النون ، وأن المفتوحة الهمزة الساكنة النون "[59]

زيادة الباء: تأتي الباء في اللغة العربية لمعان كثيرة ومنها الإلصاق وهو المعنى الأصلي لها، وقد تأتي الباء زائدة، يقول سيبويه: " وقد تكون باء الإضافة بمنزلتها في التوكيد ، وذلك ، قولك : ما زيد بمنطلق ، ولست بذاهب، أراد أن يكون مؤكدًا، حيث نفى الانطلاق والذهاب."[60]

وزيادتها جاءت في موضعين: أحدهما: أن تزاد مع الفضلة، وأعني بالفضلة المفعول وما أشبهه وهو الغالب عليها.

الثاني: أن تزاد مع أحد جزأي الجملة التي لا تنعقد مستقلة إلا به فأما زيادتها مع المفعول، فنحو قوله ــ تعالى ــ : "ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة".{البقرة:195} والمراد أيديكم، ألا ترى أن الفعل متعد بنفسه، يدل على ذلك قوله ــ تعالى ــ : " وألقى في الأرض رواسي". { النحل:15} . وأما زيادتها مع أحد جزأي الجملة ففي ثلاثة مواضع: أحدها: مع الفاعل، قال ــ تعالى ــ : "وكفى بالله شهيداً."{النساء:79}، والمراد "كفى الله"، وأما زيادتها في التعجب ــ قال ــ تعالى ــ: " أسمع بهم وأبصر". { مريم 38}، فالباء هنا زائدة وما بعدها في موضع مرفوع بفعله.

الثاني: زيادتها مع المبتدأ، مثل: بحسبك زيد، والمراد ك حسبك، وتزاد في خبر لكنَّ.

الثالث: مع خبر المبتدأ، في قوله ــ تعالى ــ : "والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها".{يونس:27}.[61] وكذلك تزاد مع التوكيد بالنفس والعين .[62]

زيادة الكاف:

ترد الكاف زائدة في التركيب النحوي للتأكيد، نحو توكيد النفي، أو توكيد الاستثناء، وغيره، فمن ورودها لتوكيد النفي، قوله ـــ تعالى ـــ : "ليس كمثله شيء وهو السميع البصير".{الشورى:11}، والتقدير: ليس شيء مثله، إذ لو لم تقدر زائدة صار المعنى: ليس شيء مثل مثله، فيلزم المحال، وهو إثبات المثل، وغنما زيد لتوكيد نفي المثل؛ لأن زيادة الحرف بمنزلة إعادة الجملة ثانيًا.[63]

زيادة "لا":

ترد "لا" الزائدة لمجرد تقوية الكلام وتوكيده، نحو: "ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعني."{طه:93}, وقوله ـــ تعالى ـــ: "ما منعك ألا تسجد".{ص:57}، ويوضحه الآية الأخرى "ما منعك أن تسجد" {الأعراف:12} ، ومنه: "لئلا يعلم أهل الكتاب" { الحديد:29}، أي: ليعلموا .[64] وتأتى "لا" زائدة عندما تكون مقترنة بعاطف ، نحو: "ما جاءني زيد ولا عمرو".[65]

زيادة اللام :

تزاد في مواضع، هي: 1 ـــ في خبر المبتدأ، كقول الشاعر:

أم الحليس لعجوز شهربة ترضى من اللحم بعظم الرقبة .

2 ـــ في المفعول الثاني لـــ "أرى" في قول بعضهم: "أراك لشاتمي".

3 ـــ اللام الداخلة على أداة شرط للإيذان بأن الجواب بعدها مبني على قسم قبلها، لا على الشرط ، وتسمى الموطئة؛ لأنها وطأت الجواب

للقسم، أي: مهدته له، نحو: "لئن أخرجوا لا يخرجون معهم، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم، ولئن نصروهم ليولنَّ الأدبار" {الحشر:12} وأكثر ما تدخل على "إن".[66]

زيادة "ما":

ما الزائدة نوعان: كافة و غير كافة. والكافة لها مواضع، هي:

1ـــ الكافة عن الرفع، ولا تتصل إلا بثلاثة أفعال: قل، وكثر، وطال.

2ـــ الكافة عن النصب والرفع، وهي المتصلة بـــ"إن" وأخواتها، نحو: "إنما الله إله واحد"[النساء:171].

3ـــ الكافة عن عمل الجر، وتتصل بـــ "رب".

أما غير الكافة فهي نوعان: عوض، وغير عوض. فالعوض في موضعين: الأول نحو قولهم: "أما أنت منطلقاً انطلقت، والأصل: انطلقت لأن كنت منطلقًا ، فقدم المفعول للاختصاص، وحذف الجار وجيء بـــ"ما" للتعويض.

الثاني في نحو قولهم: "افعل هذا إما لا " ، وأصله: إن كنت لا تفعل غيره.

وغير العوض تقع بعد الرافع، كقولك: "شتان ما زيد وعمرو"، وبعد الناصب الرافع، نحو: ليتما زيداً قائم. وبعد الجازم ، نحو: "وإما ينزغنَّك من الشيطان نزغ" [الأعراف:20]، "أياً ما تدعوا "[الإسراء:110] .وبعض الخافض حرفاًن مثل:"فبما رحمة من الله لنت لهم " [آل عمران:159] ،

أو اسماً : "أيما الأجلين" [القصص:28] ، وبعد أداة الشرط ، نحو قوله ـــ تعالى ـــ: "وإما تخافنَّ" [الأنفال:58] ، "حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم" [فصلت:20] ، وتزاد بعد الكاف.[67]

زيادة "من":

تزاد من وشروط زيادتها في التركيب النحوي ثلاثة أمور:

أولها: أن يتقدم عليها نفي، أو نهي، أو استفهام بـــ "هل"، نحو: "وما تسقط من ورقة إلا يعلمها" [الأنعام:59]، "وما ترى في خلق الرحمن من تفاوت " [الملك:3]، وتقول: لا يقم من أحد. ثانيها: تنكير مجرورها. ثالثها: كونه فاعلاً ،أو مفعولاً به أو مبتدأ .[68]

الزيادة في الأفعال :

الزيادة في الأفعال قليلة قياسًا بالزيادة في الحروف، فما يزاد من الأفعال: هو "كان" ولها مواضع معينة، وتأتي لتدل على حدوث الفعل في الزمن الماضين، ومن مواضع زيادتها:

1ـــ بين "ما" وأفعل التعجب، نحو: ما كان أحسن زيداً .[69]

2ـــ بين خبر "إن" واسمها، مثل: إن من أفضلهم كان زيداً، على إلغاء "كان".[70]

فتزاد بين الشيئين المتلازمين: كالمبتدأ والخبر، والفعل ومرفوعه، والصلة و الموصول....[71]

الإحلال

الإحلال لغة : حلل، وحل العقدة فتحها، فانحلت ... وحل بالمكان من باب رد، وحلولاً ومحلاً بفتح الحاء والمحل أيضًا المكان الذي يحل به، وحللت القوم وحللت بهم بمعنى... والحِل ما جاوز الحرم... ومحِل الدين أجله... والحليل: الزوج، والحليلة الزوجة، وهما أيضًا من يحالك في دار واحدة...وحل العذاب يَحِل بالكسر حلالاً أي: وجب، ويُحُل حلولاً، أي: نزل ...وأحل نزل، وتحلل في يمينه استثنى، واستحل الشيء عده حلالاً .[72]

وهو إنزال شيء مكان شيء، حيث يقال: أحله المكان وأحله به، وحلله به، وحل به، جعله يحُل ... ويقال: حللت بالرحل وحللته ونزلت به ونزلته وحللت القوم، وحللت بهم، ويقال: أحل فلان أهله بمكان كذا وكذا إذا أنزلهم ."[73]

الإحلال عند النحاة:

ذكر سيبويه أن العرب "يستغنون بالشيء عن الشيء الذي أصله في كلامهم أن يستعمل حتى يصير ساقطاً ".[74]

ويذكر ابن جني الرأي نفسه، فيقول: "إنا نرى العرب قد غيرت شيئاً من كلامهم من صورة إلى صورة، فيجب حينئذ أن تتأتى لذلك وتلاطفه. [75] أي: يشترط فيه السهولة والملاطفة، كما يشترط أن يتوافق اللفظ المستغنى به مع أمثلتهم وصورهم كما كان المحذوف موافقاً، وعن ذلك يقول ابن جني: "العرب إذا غيرت كلمة من صورة إلى أخرى

اختارت أن تكون الثانية مشابهة لأصول كلامهم ومعتاد أمثلتهم، وذلك أنك تحتاج إلى أن تنيب شيئاً عن شيء؛ فأولى أحوال الثاني بالصواب أن يشابه الأول، ومن مشابهته له أن يوافق أمثلة القوم، كما كان المناب عنه مثالاً من مثلهم أيضاً."[76]

المقصود بالإحلال : هو استبدال عنصر بآخر، وإحلاله محله، غير أن النصيين جعلوا المرجعية أو الإحالة ولا سيما بين الضمير والاسم الظاهر من أدوات التماسك النصي .[77]

والإحلال له صلة وثيقة بما أطلق عليه النحاة القدماء "التضمين "،نرى ذلك في قول ابن هشام عند تعريفة للتضمين "قد يشربون لفظاً معنى لفظ آخر ، فيعطونه حكمه ويسمى ذلك تضميناً وفائدته أن تؤدي كلمة مؤدى كلمتين "[78]. وتحدث بعض المحدثين عن التضمين بقوله: " يتجاوز التضمين قرينة البنية إلى حيث يمكن عده ظاهرة من ظواهر التضام، وذلك بأن اللفظ الذي يضمن معنى لفظ آخر يحتل موقعه أيضاً، فيدخل على ألفاظ قد لا يدخل عليها بأصل وضعه واستعماله، فيتعدى بالحرف بعد أن كان متعدياً بنفسه، أو يضام حرفاً موقعه الحاضر لا يضامه في موقعه الأصلي، و هلم جراً ."[79]

ومعنى ذلك أنه ليس ثمة حذف لعنصر ما من داخل التركيب، و لم نأت بعنصر من خارج التركيب ليحل محل آخر، بل كل ما هنالك أنه تم التوسع في استعمال اللفظ ، حتى يؤدي معنى لفظ آخر مناسب له،فيضمن اللازم معنى المتعدي، أو يضمن اللفظ معنى لفظ آخر غيره فيحتل موقعه

وهو الأمر الذي يترتب عليه دخوله على ألفاظ لا يدخل عليها بأصل وضعه واستعماله، فيتعدى بحرف جر بعد أن كان يتعدى بنفسه، أو يتعدى بحرف جر آخر بعد أن كان يتعدى في الأصل بحرف معين. فالتضمين بذلك يعد ضرباً من ضروب الإحلال .

أنواع الإحلال:

الإحلال التركيبي من الظواهر اللغوية التي قد تقع في الأسماء، والأفعال، والحروف.

الإحلال في الأسماء:

إحلال المفعول به محل الفاعل:

المفعول به أحد العناصر التي تحل محل الفاعل عند حذفه، آخذاً كل أحكامه. ولا يتم ذلك إلا إذا كان الفعل متعدياً، سواء أكان متعدياً إلى مفعول به واحد أم متعدياً إلى أكثر من مفعول، وفي حالة تعديه لأكثر من مفعول به فإن الذي يحل محل الفاعل هو المفعول الذي أكثر اتصالا بالفاعل، أي: أقربه إليه حكماً مع ملاحظة وضوح الدلالة وعدم غموضها.[80]

لذلك يرى ابن جني أن" العرب لما قوي في أنفسها أمر المفعول حتى كاد يلحق عندها برتبة الفاعل... خصوا المفعول إذا أسند الفعل إليه بضربين من الصنعة، أحدهما: تغيير صورة المثال مسنداً إلى المفعول عن صورته مسنداً إلى الفاعل، والعدَّة واحدة، وذلك نحو: ضَرَب زيدٌ، وضُرب، وقتَلَ، وقُتِل ... والآخر: أنهم لم يرضوا و لم يقنعوا بهذا القدر من

التغيير حتى تجاوزوه إلى أن غيروا عدة الحروف مع ضم أوله، كما غيروا في الأول الصورة والصيغة، وذلك نحو قولهم: أحببته، وحُب، وأزكمه الله وزُكم.[81]

إحلال الجار والمجرور:

من العناصر التركيبة التي تحل محل الفاعل بعد حذفه في الجملة، الجار والمجرور.[82] وذلك عند بناء الفعل للمجهول.

الإحلال في النعت:

يشهد التركيب اللغوي تغييرًا في بنيته بحذف المنعوت ويحل النعت محله، نحو قوله ـــ تعالى ـــ: "أن اعمل سابغات" [سبأ:11]، أي: دروعاً سابغات .[83]

الإحلال في المضاف إليه:

يجوز حذف المضاف وإحلال المضاف إليه محله ويعرب بإعرابه، وذلك نحو قوله ـــ تعالى ـــ : "وأشربوا في قلوبهم العجل " [البقرة:93]، أي: حب العجل، وكقوله ـــ تعالى ـــ: "وجاء ربك" [الفجر: 22] أي: أمر ربك .[84]

الإحلال بالمضمر:

من وسائل التضام الواضحة الأشكال البديلة، وهي كلمات قصيرة اقتصادية ليس لها محتوى ذاتي، وإنما تقوم في ظاهر النص مقام تعبيرات تتصف بإثارة محتوى أكثر تعيينًا، وتساعد هذه التعبيرات مستعملي النص على الاحتفاظ بالمحتوى، وهو مهيأ في مواقع التخزين النشط، دون حاجة

منهم لإعادة ذكر كل شيء بتفصيلاته. وأشهر نوع من الأشكال البديلة هو الضمائر، التي تقوم مقام الأسماء، أو عبارات الأسماء التي تشاركها المدلول ... ويطلق مصطلح الإشارة اللاحقة على استعمال شكل بديل لاحق لتعبير يشاركه في المدلول، وتعد الإشارة اللاحقة الأكثر شيوعًا في حالات اشتراك المدلول [85]

ويطلق مصطلح الإشارة السابقة على استعمال الشكل البديل الذي يسبق التعبير المشارك له في المدلول.[86]

فالإشارة اللاحقة، والإشارة السابقة هما من حالات إحلال المضمر محل الظاهر لغرض الإيجاز والاختصار. ومن أمثلة الإشارة اللاحقة قول النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ : "ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه".[87] فضمير الهاء في (غلبه) يعود على اسم ظاهر يسبقه هو(الدين) فيما يسمى الأشكال البديلة. ومن أمثلة الإشارة السابقة قول النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ : "اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليه سنين كسني يوسف".[88] فضمير(ها) في الفعل (اجعلها) يعود على لفظ (سنين) المتأخر بعده في سياق الجملة. ويعد هذا نوع من الإحلال بين الاسم الظاهر والمضمر.

الإحلال في الأفعال:

يدخل الإحلال الأفعال كما يدخل الأسماء، وقد ورد هذا في الاستعمال اللغوي، حيث وردت أفعال لازمة تستعمل في السياق متعدية، وأفعال متعدية تصير في الاستعمال لازمة، وأفعال تتعدى بحرف جر معين، فتأتي في السياق متعدية بغيره.

ويوضح ابن هشام فائدة الإحلال أو التضمين ـــ كما سماه ـــ : " قد يشربون لفظاً معنى لفظ فيعطونه حكمه، ويسمى ذلك تضميناً، وفائدته أن تؤدي كلمة مؤدى كلمتين."[89]

والذي يساعد في فهم هذا النوع من الإحلال، هو السياق "ولا غرابة في أن التحليل النحوي في العربية يعتمد في بعض جوانبه على فهم المعنى الذي يحدده السياق، فقد وجد في العربية كثير من الأدوات التي تتعدد معانيها واستعمالاتها، ووجد التضمين في الأفعال، حيث يستخدم فعل بمعنى فعل آخر، وغير هذا وذاك مما يعتمد في تحليله على فهم سياقه. وليس هذا لبس أو غموض؛ لأن الاستخدام اللغوي في السياق يكشف عن كل هذه الجوانب كشفاً واضحاً بتقديم وسائل الترابط الخاصة بأجزاء التراكيب في بناء الجملة.[90]

الإحلال في الحروف:

قد يحل حرف مكان حرف آخر بأن يؤدي معناه أو يأتي حرف بمعنى كلمة أخرى، ومن ذلك حرف الباء ومعناه الأصلي الإلصاق[91]، ولكنها قد تأتي بمعان أخرى مثل السببية نحو: "إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل". وتأتي بمعنى المصاحبة، نحو: "اهبط بسلام" أي معه، وتأتي بمعنى في، نحو: "ولقد نصركم الله ببدر" ، وتأتى بمعنى الاستعلاء ، نحو: "من إن تأمنه بدينار".[92]

حرف الجر "على" : معناه الأصلي الاستعلاء وقد تأتي بمعنى المصاحبة، نحو: "وآتى المال على حبه". وتأتي بمعنى اللام للتعليل، نحو: "ولتكبروا الله على ما هداكم "، أي: لهدايتكم .

وتأتي بمعنى "من"، نحو: "إذا اكتالوا على الناس يستوفون ".

وتأتى بمعنى الباء، نحو: " حقيق على أن لا أقول ".[93]

حرف الجر "عن": معناه الأصلي المجاوزة و لم يذكر البصريون غيره، ولكن قد يأتي بمعنى "بدل"، نحو: "واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً" ويأتي لمعنى التعليل، نحو: "وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه".[94]

حرف الجر" في" : ومعناه الأصلي الظرفية، نحو: "غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين".

وتأتي بمعنى التعليل، نحو: "فذلكن الذي لمتنني فيه". وبمعنى الاستعلاء نحو:"و لأصلبنكم في جذوع النخل". وبمعنى إلى، نحو: "فردوا أيديهم في أفواههم".[95]

حرف الجر "من" : وهي لابتداء الغاية وهو الغالب عليها حتى ادعى جماعة أن سائر معانيها راجعة إليه، نحو:"من المسجد الحرام "، "إنه من سليمان" .

وتأتى بمعنى "بعض" نحو: "منهم من كلم الله ". وتأتي بمعنى التعليل، نحو: "مما خطيئاتهم أغرقوا". وتأتى مرادفة لحرف الجر"عن"، نحو: "فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله".[96]

الإحلال بين الجملة والمفرد:

قد تحل جملة مكان المفرد، وذلك بأداء نفس المعنى والعمل للمفرد، وقد يحدث العكس بأن يحل المفرد محل الجملة فيؤدي نفس العمل.

إحلال الجمل محل المفرد:

تحل الجملة محل المفرد في مواضع هي: خبر المبتدأ، وخبر ما أصله المبتدأ، وكذلك في جملة الصفة وجملة الحال.[97]

إحلال المصدر محل الأفعال :

يعمل المصدر عمل الفعل مفردًا، نحو: عجبت من ضرب زيد عمرًا، ومضافًا إلى المفعول أو إلى الفاعل.[98]

ويعمل المصدر عمل الفعل في موضعين، أحدهما: أن يكون نائبًا عن الفعل، نحو: ضربًا زيدًا، فزيدًا منصوب بـــ "ضربًا" لنيابته مناب "اضرب".

ثانيهما: أن يكون المصدر مقدرًا بـــ أن والفعل، أو بما والفعل، فيقدر بـــ "من" إذا أريد المضي، أو الاستقبال، نحو: عجبت من ضربك زيدًا أمس، أو غدًا ... ويقدر بـــ "ما" إذا أريد به الحال، نحو: عجبت من ضربك زيدًا الآن. [99]

وقد ينوب المصدر عن الفعل في الدلالة على معناه. [100]

ثبت المراجع:

ـــ أساس البلاغة ، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، دار الفكر، بيروت ، لبنان، 1420هـ ، 2000م.

ـــ الأشباه والنظائر في النحو للسيوطي ، مراجعة د/ فايز ترحيني ، دار الكتاب العربي، ط1984،1.

ـــ أصول النحو لابن السراج ، تحقيق: عبد الحسين الفتلي ، مؤسسة الرسالة ،ط3، 1417هـ 1996م.

ـــ الأمالي الشجرية ، تصحيح : حبيب عبد الله ، وعبد الرحمن اليماني ، والسيد زين العابدين الموسوي ، 1349هـ .

ـــ أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، لابن هشام الأنصاري ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، بيروت ، 1974م.

ـــ البرهان في علوم القرآن ، الزركشي ، تحقيق: مازن المبارك ، ط5 ، دار النفائس ، بيروت، 1986م.

ـــ بناء الجملة العربية ، محمد حماسة عبد اللطيف ، دار الشروق ، القاهرة 1996.

ـــ البيان في روائع القرآن ، د.تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة 1993م.

ـــ تراكيب الحديث الشريف دراسة نصية من خلال فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، حنفي أحمد بدوي ، رسالة دكتوراه ، كلية دار العلوم ـــ جامعة المنيا ، 1428هـ ،2007م.

ـــ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد ابن للطبري، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المعارف ، مصر.

ـــ الخصائص،أبو الفتح عثمان بن جني ،تحقيق: محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت.

ـــ دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني ، القاهرة، 1992م.

ـــ سر صناعة الإعراب ، أبو الفتح عثمان ابن جني ، تحقيق: حسن هنداوي، ط2، دمشق،1993م.

ـــ شرح ابن عقيل ، تحقيق: هادي حسن حمودي ، دار الكتاب العربي، بيروت ،1999م.

ـــ شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الطلائع ، القاهرة، 2004م.

ـــ شرح الكافية للرضي، تعليق: يوسف عمر ، جامعة قاريونس ، بنغازي ليبيا،1996م

ـــ شرح شذور الذهب، ابن هشام الأنصاري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية ،القاهرة ، 1380هـ ،1960م.

ـــ علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، صبحي إبراهيم الفقي، دار قباء ، القاهرة ،2000م.

ـــ علم المعاني بين النظرية والتطبيق، د/ عبد الرازق أبو زيد، مكتبة الشباب، مصر ط 1996،2م.

ـــ العين ، الخليل بن أحمد الفراهيدي ، تحقيق: مهدي المخزومي ، وإبراهيم السامرائي، بغداد،1980.

ـــ فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ، دار التقوى، القاهرة.

ـــ القاموس المحيط ، الفيروزابادي ، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت.

ـــ قضايا التقدير النحوي بين القدماء والمحدثين، محمود سليمان ياقوت، دار المعارف، القاهرة، 1985م.

ـــ الكتاب، عمرو بن عثمان سيبويه ، تحقيق: عبد السلام هارون ، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ـــ لسان العرب ، ابن منظور ، طبعة دار المعارف ، مصر .

ـــ المثل السائر في أدب الكاتب والشاع، ضياء الدين ابن الأثير، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد مصر،1939م .

ـــ مدخل إلى علم لغة النص تطبيقات لنظرية ديبو جرا ند ، وولفجانج دريسلر ، د/إلهام أبو غزالة ، علي خليل حمد، ط 2الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 1999م.

ـــ معاني القرآن ، أبو زكريا بن زياد الفراء ، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي وآخرين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ـــ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام الأنصاري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي، بيروت ، لبنان .

ـــ المفصل في صنعة الإعراب ، محمود بن الزمخشري ، ط2، دار الجيل.

ـــ المقتضب، محمد بن يزيد المبرد ، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

هوامش البحث:

(Endnotes)

1 ـــ العين ، الخليل بن أحمد الفراهيدي :3/ 201ـــ 202

2 ـــ لسان العرب ، ابن منظور : مادة حذف :2/83 ، طبعة بولاق ـــ مصر .

3 ـــ القاموس المحيط 1/407

4 ـــ انظر شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد 1/131

5 ـــ استخدم سيبويه مصطلح المسند والمسند إليه لكل من المبتدأ والخبر انظر الكتاب2/126 .

6 ـــ علم المعاني بين النظرية والتطبيق ، د/ عبد الرازق أبو زيد : 95-96 ، مكتبة الشباب ، مصر ط 2 ، 1996 .

7 ـــ نقلا عن الأشباه والنظائر في النحو للسيوطي : 1/13 ، مراجعة د/ فايز ترحيني ، دار الكتاب العربي ، ط1 ، 1984 .

8 ـــ مغني اللبيب ، ابن هشام الأنصاري :748، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد

9 ـــ دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني : 131 تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الجيل بيروت 2004 م.

10 ـــ الكتاب لسيبويه : 1/ 24ـــ 25 ،

11 ـــ انظر دلائل الإعجاز :131

12 ـــ انظر الكتاب :1/69 ، 258 وما بعدها ، المقتضب : 2/152،318 .

13 ـــ ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي ، طاهر سليمان ياقوت :19 ،الدار الجامعية الإسكندرية 1997 ، وتسهيل الفوائد لابن مالك :179 ، تحقيق محمد كامل بركات ، دار الكتاب العربي ، القاهرة 1967

14 ـــ المقتضب للمبرد :2/318ـــ 319

15 ـــ الجمل في النحو للخليل بن أحمد الفراهيدي :248، تحقيق: فخر الدين قباوة ، دار الجيل ، بيروت ، ط 5 ، 1995م .

16 ـــ دلائل الإعجاز :141.

17 ـــ مغني اللبيب لابن هشام :603 وما بعدها .

18 ـــ الأشباه والنظائر للسيوطي :1/55 ، دار الكتاب العربي ، ط1 بيروت ، 1984م.

19 ـــ انظر :المثل السائر لابن الأثير 2/77 .

20 ــ مغني اللبيب : 692.

21 ــ الأمالي الشجرية :2/123 تصحيح : حبيب عبد الله ، وعبد الرحمن اليماني ، والسيد زين العابدين الموسوي ، 1349هـ

22 ــ أصول النحو لابن السراج :1/74 ، تحقيق : عبد الحسين الفتلي ، مؤسسة الرسالة ،ط3، 1417هـ 1996

23 ــ انظر الكتاب ، عمرو بن عثمان سيبويه :1/109 ، تحقيق : عبد السلام هارون ، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

24 ــ الخصائص ،أبو الفتح عثمان بن جني :3/319 ،تحقيق محمد علي النجار ن دار الهدى للطباعة والنشر ، بيروت.

25 ــ انظر: مغني اللبيب :820ــ824 وانظر شرح المفصل لابن يعيش :1/94، شرح ابن عقيل :1/221

26 ــ المصدر السابق : 1/226ــ230

27 ــ شرح ابن عقيل: 1/220ــ 221.

28 ــ المصدر السابق :1/223ــ 228.

29 ــ بناء الجملة العربية ، محمد حماسة عبد اللطيف :211، دار الشروق ، القاهرة 1996.

30 ــ تراكيب الحديث الشريف دراسة نصية من خلال فتح الباري بشرح صحيح البخاري :33، حنفي أحمد بدوي ، رسالة دكتوراه ، كلية دار العلوم ــ جامعة المنيا ،1428هـ ،2007م.

31 ــ مغني اللبيب لابن هشام : 814.

32 ــ السابق :1/815 ــ 816 .

33 ــ السابق :816

34 ــ السابق817.وانظر شرح ابن عقيل :3/169.

35 ــ مغني اللبيب :818.

36 ــ السابق : 819 ــ 820.

37 ــ السابق :820.

38 ــ مغني اللبيب :827.

39 ــ مغني اللبيب :228ــ230.وانظر :شرح ابن عقيل :2/130

40 ــ مغني اللبيب :830.

41 ــ السابق :831.

42 ــ السابق :831.

43 ــ مغني اللبيب :838.

44 ــ السابق:840.

45 ــ السابق :846.

46 ــ السابق :846.

47 ــ السابق :847.

48 ــ السابق: 848 ــ 849

49 ــ مغني اللبيب : 851 ــ 852

50 ــ شرح ابن عقيل :3/ 150 ــ 153.

51 ــ مختار الصحاح :118

52 ــ القاموس المحيط 365.

53 ــأساس البلاغة ، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري :280، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، 1420هـ ، 2000م.

54 ــ انظر الأصول في النحو لابن السراج :2/255ــ 260 ، قضايا التقدير النحوي :277ــ297.

55 ــ بناء الجملة العربية ، حماسة عبد اللطيف :71

56 ــ معاني القرآن للفراء :1/235، 244، 374

57 ــ انظر الكتاب: 4/222، والمقتضب:2/3، 4/116، وشرح المفصل لابن يعيش:8 /128ــ 136

58 ــ انظر : البرهان في علوم القرآن للزركشي : 178،2/177، جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري:1/404 ،405.

59 ــ شرح المفصل لابن يعيش : 8/128ــ129

60 ــ الكتاب :4/225.

61 ــ شرح المفصل لابن يعيش:8/138ــ139، وانظر المقتضب للمبرد:4/421 ، شرح الرضي على الكافية:2/282، تعليق :يوسف عمر، جامعة قاريونس ن بنغازي ليبيا،1996م.

62 ــ مغني اللبيب لابن هشام :111.

63 ــ انظر:مغني اللبيب:179وما بعدها،الأصول في النحو:1/294، المقتضب :4/416 ــ 418، سر صناعة الإعراب لابن جني

259ـ1/258:

64 ـ مغني اللبيب:248، شرح المفصل :8/136ـ137.

65 ـ مغني اللبيب:245.

66 ـ مغني اللبيب :232ـ235،وانظر:الكتاب:2/206ـ207 ، شرح الرضي :2/285.

67 ـ مغني اللبيب: 306ـ317، وانظر الكتاب :1 /161،143 شرح المفصل: 8 / 131ـ 135

68 ـ مغني اللبيب :322ـ323، وانظر الكتاب :1/ 68، 2/316، شرح المفصل:8 /137ـ138.

69 ـ الكتاب:1/73.

70 ـ السابق: 2/135.

71 ـ شرح ابن عقيل :1/147، تح: هادي حسن حمودي ، دار الكتاب العربي، بيروت ،1999م.

72 ـ مختار الصحاح :1/63. وانظر: القاموس المحيط: 1274.

73 ـ لسان العرب :مادة حلل .

74 ـ الكتاب:1/25، 2/121

75 ـ الخصائص لابن جني : 2/470.

76 ـ الخصائص: 2/66ـ67.

77 ـ علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق:121،صبحي إبراهيم الفقي ، دار قباء ، القاهرة ،2000م.

78 ـــ مغني اللبيب :897.

79 ـــ البيان في روائع القرآن:91، د.تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة 1993م.

80 ـــ انظر :شرح الكافية :1/84، أوضح المسالك:2/123.

81 ـــ الخصائص لابن جني:2/220.

82 ـــ انظر: شرح ابن عقيل:2/99، أوضح المسالك:124،2/123.

83 ـــ انظر: شرح ابن عقيل:3/169،مغني اللبيب:389، شرح شذور الذهب:165

84 ـــ شرح ابن عقيل:3/63.

85 ـــ مدخل إلى علم لغة النص،د/إلهام أبو غزالة ، علي خليل حمد،92، ط2 الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 1999م.

86 ـــ مدخل إلى علم لغة النص:93

87 ـــ فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني:حديث رقم:39.

88 ـــ السابق: حديث رقم:804.

89 ـــ مغني اللبيب :897، وانظر: الخصائص:2/308وما بعدها .

90 ـــ بناء الجملة العربية ، محمد حماسة عبد اللطيف :10

91 ـــ مغني اللبيب:137.

92 ـــ السابق:139ـــ142.

93 ــ السابق:190ــ192.

94 ــ السابق:196ــ 197.

95 ــ السابق:223ــ 225.

96 ــ السابق:419 ــ 424

97 ــ انظر شرح ابن عقيل: 1/184،186، 1/236 وما بعدها ، 1/307 وما بعدها ، 2/22 وما بعدها ،2/ 235ــ 236، 3/161ــ165.

98 ــ المفصل في صنعة الإعراب ، جار الله الزمخشري : 281، دار الجيل.

99 ــ شرح ابن عقيل :3/77

100 ــ السابق : 2/150

تعليم الوحدات الصرفية في اللغة العربية

دراسة نقدية على ضوء مفاهيم المدرسة الخليلية الحديثة

أ. حميدي بن يوسف

(جامعة يحي فارس المدية)

تقديم:

يُعد علم الصرف من علوم العربية التي تدرس المستوى اللفظي من مستويات بناء الكلام، ولا أحد ينكر أهميته، إذ يكفي تدليلا على ذلك أن يتوقف تحديد دلالة قول ما على بنية لفظة واحدة فيه، فيتغير المقصد تماما بتغيّر تصريف تلك الكلمة، كما أنّه "به تُعرف سعة كلام العرب، وتنجلي فرائد مفردات الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية"[1]. كما أنّه على أساس البنية الصرفية للغات، تقسم هذه الأخيرة إلى ثلاثة أنماط (نمط عازل واشتقاقي وإلصاقي). ولما كان علم الصرف على هذا القدر من الأهمية، استلزم ذلك استثمار كل المعارف والنظريات اللسانية والتعليمية في سبيل تطوير تدريسه.

تُعدّ العربية من اللغات التي تنتمي إلى النمط التصريفي، وهو النمط الذي تكون فيه "الكلمات مشتملة على مورفيمات [وحدات صرفية]

1 أحمد الحملاوي، شذا العرف في فنّ الصرف، (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2000)، ص. 07.

نحوية تحدد وظيفتها"[2]. و"تحتوي الكلمة الواحدة على عدد من الوحدات الدلالية التي يصعب إلحاقها إلى الأجزاء المختلفة للمفردة ككل، ثمّ إنّ العلاقات النحوية بين مفردات الجملة الواحدة لا تُظهرها إلاّ الحركات الإعرابية الخاصة بالرفع والنصب والجر"[3]. ويُفهم من هذا التحديد للنمط التصريفي أنّ الوظيفة النحوية أو الصرفية الواحدة لا يمكن أن تتجسد في وحدة لغوية مستقلة عن جذر الكلمة، أو متصلة بالجذر وفق مبدأ الإلصاق، بل تتحدد تبعا لما يلحق صيغة الكلمة كلها من تغير. ووفقا لما سبق فالبنية الصرفية للغة العربية حساسة جدا، إلى درجة أنّ أي تغيّر طفيف فيها يؤدي إلى تغيير معنى العبارة ككل.

1 ــ الوحدة الصرفية في اللسانيات الغربية:

يُدرك المطلع على عدد من المعاجم الفرنسية أو الإنكليزية المتخصصة في مجال المصطلحات اللسانية بأنّ المصطلح الشائع الذي يوافق مفهوم الوحدة الصرفية هو مصطلح المورفيم، Morphème، على الرغم من أنّ المدرسة الوظيفية في اللسانيات تفضل استعمال مصطلح المونيم، وتميّز بينه وبين المورفيم من منطلق أنّ المورفيم يمثل أحد مكوني المونيم فقط.

يُعرّف المورفيم على أنّه "أصغر وحدة [لسانية] حاملة لدلالة، وقابلة للتجزئة، [إلى وحدات أصغر منه] خلافا للمعنم (Le sème) الذي يعد الوحدة الدنيا للدلالة غير القابلة للتجزئة"[4]، ولكن إذا سلمنا بقابلية المورفيم للتقسيم إلى وحدات أدنى منه، فإنّ الناتج لن يكون أبدا وحدة

- 2Jean Dubois (et al.), Dictionnaire de linguistique, Larousse, 2éd, 2002, p 204.

3- أحمد مومن، مبادئ في اللسانيات، (ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2002)، ص. 80.

- 4Frank Neuveu, Dictionnaire des sciences du langage, (Armand Colin, Paris, 2004), p. 196.

ذات دلالة، بل نكون بعد التجزئة "قد انتقلنا إلى مستوى لساني أدنى، وهو المستوى الصوتي الخالي من الدلالة"[5].

ويمكن التمثيل عليه في اللغة الفرنسية "بملفوظ مثل: Les boxeurs souffrent الذي يتكون، بالنظر إلى المستوى الكتابي، من سبعة مورفيمات:

."[6] le + s +box + eur + s + souffr + ent

ويظهر من خلال هذا المثال أنّ المورفيم يتكون من الوحدات ذات الدلالة المعجمية والنحوية على حد سواء، وهذا خلاف للطرح الوظيفي الذي يحاول، في سياق التمييز بين المونيم والمورفيم، حصر مفهوم المورفيم في الوحدة اللسانية التي تحتوي على دلالة نحوية أو صرفية فقط، بينما المونيم فهو مشتق من "الإغريقية Monos التي تعني "وحيد"، (...) واستعمله أندري مارتيني ليعني به الوحدات الدلالية الصغرى الناتجة عن التقطيع الأول للغة"[7]. أي أنّ المورفيم مكون نحوي (أو صرفي) ينضاف إلى المكوّن المعجمي الذي هو اللكسيم لتشكيل المونيم.

ويُعرّف المورفيم أيضا تعريفا آخر على أنّه "وحدة مجردة تضم مجموعة من الافتراضات الصورية، بحيث أنّ التحقيقات الفعلية له يُجسدها المورف"[8]. وهذا التعريف لا يناقض التعريف السابق بل ينظر إليه من زاوية أخرى، وفق ثنائية التجريد والتحقق، فالمورفيم وفق هذا التعريف

5 - Ibid, p. 196.
6- Jean Dubois (et al.), Dictionnaire de linguistique, p. 310.
7- Frank Neuveu, (Op. Cit), p. 195.
8 -Ibid, p 196.

هو وحدة دلالية ذهنية مجردة يمكن الوصول إليها من خلال حصر أو جمع الخصائص الموجودة في مجموعة المورفيمات المجسّدة له أثناء التأدية الفعلية (أثناء عملية التلفظ). ففي اللغة الفرنسية "يتحقّق المورفيم "aller" من خلال ثلاثة مورفات: i ,-all-, v-, في قولنا allons, vais, ira"[9]. فهذه المورفات وإن اختلفت في شكلها فإنها تحيل إلى دلالة واحدة، وهي الدلالة التي يحملها الفعل "aller".

وبخصوص نظرية النحو التوليدي التحويلي (في اللسانيات) فإنها تنظر إلى المورفيم على أنّه "عنصر ينتمي إلى البنية العميقة [للجملة]، ويقابل المكوّن "formant" الذي يعدّ عنصرا من البنية السطحية"[10].

وبصرف النظر عن الاختلافات الموجودة بين النظريات اللسانية في تحديدها لمفهوم المورفيم، وهي الاختلافات التي قد تكون نابعة من اختلاف في المرجعية النظرية لكل مدرسة، يمكن القول بأنّها (أي النظريات) تتفق حول خاصية أساسية من الخصائص المشكلة لمفهومه، وهي تلك التي تؤكّد على أنّ المورفيم هو أصغر وحدة لسانية تحتوي على وحدة دلالية (كاملة) وليس جزءا من دلالة، سواء كانت هذه الوحدة نحوية أو معجمية أو هما معا.

ووفقا لهذا الحد الأدنى من الاتّفاق، سنحاول فيما يأتي الوقوف عند بعض الأمثلة من المستوى الصرفي في اللغة العربية التي عدّها بعض اللسانيين

---

9 Jean Dubois, (Op. Cit), p. 310.
(يُقصَد بالمورف أحد التحقيقات الفعلية للمورفيم في الكلام).

10- Ibid. p. 311.

العرب مورفيمات لها دلالة صرفية كاملة، وهي تُدرّس في برامجنا التعليمية الخاصة بالمستوى الصرفي على أنّها كذلك.

2 ــ الوحدة الصرفية (المورفيم) عند اللسانيين العرب المحدثين:

يورد بعض اللسانيين العرب المحدثين في كتاباتهم الخاصة بالمستوى الصرفي من اللسان عددا من الأمثلة التي تجسّد مفهوم المورفيم وأنواعه، فهذا محمّد محمّد داوود في كتابه: العربية وعلم اللغة الحديث، لمّا تحدّث عن المورفيمات التي تظهر في شكل سوابق (في العربية) ذكر "حروف المضارعة (...) والمجموعة في كلمة أنيت"[11]. وكذلك الشأن بالنسبة لأحمد محمد قدّور في كتابه: مبادئ في اللسانيات، الذي اعتبر "الألف والسين والتاء [مورفيما] في قولنا: «استغفر ربّه»، والألف والتاء في قولنا: «اجتمع القوم» ونحو ذلك"[12].

ونفس الأمر ينطبق على الهمزة التي تكون في أول الفعل حيث عدّها أحمد محمد قدور مورفيما سابقة حاملا لمعنى التعدية في وزن (أفعل)[13]. وكذلك فعل إبراهيم خليل حين اعتبر الهمزة في أول الفعل مورفيما اشتقاقيا تؤدي إضافته لجذر الكلمة إلى قلب معناها الأصلي، في مثل "شفى وأشفى، عجَم وأعجم"[14]

---

11 –محمد محمد داوود، العربية وعلم اللغة الحديث، (دار غريب للطباعة والنّشر، القاهرة، 2001)، ص. 161.

12 –أحمد محمد قدّور، مبادئ في اللسانيات، (دار الفكر، دمشق، 1999)، ط2، ص. 150.

13 – المرجع نفسه، ص. 149.

14 – إبراهيم خليل، في اللسانيات ونحو النص، (دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن، 2007)، ص. 75.

وبخصوص كيفية استخراج المورفيم يرى أحمد محمد قدّور بأنه علينا أنْ "ننظر فيما هو زائد على الأصول (فَعَلَ)، فنرى أنّ الألف والسين والتاء هي الزوائد التي لحقت الأصل وشكّلت معه مبنى الصيغة الكلي. ولأنّ هذه الحروف قابلة للعزل والإلصاق فهي تُعدّ مورفيمات ذات دلالة معيّنة كالطلب والصيرورة ونحو ذلك"[15].

ولئن بدا بأنّ مقياس العزل والإلصاق مقياسا صحيحا، إذ على ضوئه نعرف الوحدة اللغوية الجارحة عن الأصل من الوحدة البانية له، فإنّه عند تطبيقنا لهذه القاعدة على الأمثلة التي ذكرها أحمد محمد قدور، بحذفنا للألف والسين والتاء، فإننا لا نصل إلى الأصل، بل نصل إلى لفظ: غْفَرَ، إذا كان المحذوف منه هو كلمة استغفر. وواضح أنّ هذا الناتج لا يُعدّ أصلا، وليس له بنية معروفة في العربية. كما أنّه لا يمكن الإقرار بأنّ اللفظ اكتسب معنى الطلب والصيرورة من الزائدة "است" فقط، بل من صيغة استفعل ككل، فلو كان ذلك كذلك واعتمدنا على الظاهر فقط دون تمييز بين الحروف الأصلية والزوائد لكان الفعل "استلّ" مثلا يدلّ على الطلب والصيرورة من ضمن ما يدلّ عليه.

وبخصوص الدواخل اعتبر صيغة عبد الوهاب شحاتة الألف في جمع التكسير مورفيما، نفرّق من خلاله بين المفرد والجمع في "مثل: رجل: رجال، فرَس: أفراس"[16]، فهي حسبه مَن أضفى بمفرده معنى الجمع على

15 -أحمد محمد قدور، المرجع السابق، ص. 155.

16 - عبد الوهاب شحاتة، "أنواع المورفيم في العربية"، مجلّة علوم اللغة، (دار غريب، مصر، 1998)، مج29، ع2، ص. 213.

الصيغة. وواضح أنّ معنى الجمع يتأتى من الوزن (المثال) ولا تأثير للألف في التمييز بين الجمع والمفرد إلاّ ضمن الصيغة كلها. كما أنّه لا يمكن لنا الفصل بين المعنى الصرفي والمعجمي، مما حدا بأندري مارتيني إلى نعت هذه المونيمات بالممزوجة (amalgamés)

ونجد أحمد محمد قدور ينحو المنحى ذاته في اعتبار الألف مورفيما دالا على الفاعلية ودالا على الفعل الثلاثي المزيد، فأثناء تمثيله للدواخل يقول: "وأمثلتها في العربية عديدة منها (...) ألف فاعل من الثلاثي للدلالة على اسم الفاعل، ومنها ألف وزن فاعَل للدلالة على الثلاثي المزيد ونحو ذلك"[17].

من خلال الأمثلة المعروضة سابقا يظهر بأنّ أصحابها قد أسندوا إلى بعض الحروف في أوّل الكلمة وفي وسطها دلالة صرفية مستقلة معتبرين إياها مورفيمات، ولكن الحقيقة غير ذلك؛ لأنّ المورفيم كما رأينا ذلك عند اللسانيين الغربيين، يُشترط فيه اشتماله على دلالة على الأقل، بينما الحروف الزائدة التي ذكرها الباحثون العرب لا تشكّل وحدة دلالية كاملة ومستقلة، ولكّنها تُساهم مع غيرها من الحركات في بناء الدلالة. وإنّ عدّهم لتلك الحروف وحدات صرفية دالة لهو إقرار فيه كثير من التعسّف. وهذا ما يُقرّه عبد الرحمن الحاج صالح، في سياق حديثه عن مفهوم البناء في مستوى الكلمة.

17 - أحمد محمد قدور، مبادئ في اللسانيات، ص. 150.

3 ــ الوحدة الصرفية في النظرية الخليلية الحديثة:

يقترب مفهوم الوحدة الصرفية في النظرية الخليلية الحديثة من مفهوم صرفي أساسي في النظرية وهو الكلمة[18]. ويُعرّف عبد الرحمن الحاج صالح الكلمة في هذه النظرية "على أنّها كل قطعة صوتية دالة غير قابلة للتحليل إلى عناصر مقطعية صغرى. ولها استقلالية تسمح لها بالظهور في إحدى مواضع اللفظة. كما يمكن لها أن تتعاقب مع عناصر [لغوية] أخرى بما فيها العنصر العدمي"[19].

ويُفهم من خلال قوله "ولها استقلالية تسمح لها بالظهور في إحدى مواضع اللفظة" أنّ الكلمة ترتبط مع الكلمات داخل اللفظة وفق علاقة وصل لا علاقة بناء، أي وفق ضمّ الوحدات الصرفية إلى بعضها البعض. أمّا في قوله يمكن أن تتعاقب مع عناصر أخرى، فيقصد به أنّه يمكن استبدالها في نفس الموضع بكلمة أخرى، كأن تتعاقب نواصب الفعل المضارع مع بعضها. ويبدو أنّ حكم التعاقب بين الكلمات أيضا ينطبق على العنصر اللغوي العدمي، إذ يمكنه أيضا أن يشغل موضع الكلمة، فـــالسابقة "لن" يمكن أن تعوّض بعنصر عدمي يرتبط بعلاقة وصل مع

18 – يُفرّق عبد الرحمن الحاج صالح بين المورفيم والكلمة بالنظر إلى مبدأ التعاقب مع العنصر اللغوي العدمي أو الصفري، فهو يعتبر أنّ الحروف التي يُسمونها "بأحرف المضارعة" تتعاقب فيما بينها، إذ يمكن أن يحل أحدهما مكان الأخر في بنية الفعل المضارع، ولكن لا يمكن لها أن تُعوّض بالعنصر العدمي دون إخلال بالبنية الخاصة بالفعل المضارع. وهذا خلافا للكلمة التي يمكن أن تتعاقب مع العنصر العدمي دون إخلال بالبنية الأصلية للعنصر اللغوي. (يُنظر: Hadj-Salah, A, Linguistique arabe et linguistique générale (Essai de méthodologie et D'épistémologie du 'ilm al-'arabiyya, T2, p. 170).

19 Hadj-Salah, A, Linguistique arabe et linguistique générale, T2, pp. 169-170.

الفعل المضارع. وهذا ما يؤكّده قول الحاج صالح أنّ "الوصل يحصل في داخل اللفظة، أما البناء فهو يحدث في داخل الكلمة، وكذلك داخل النواة التركيبية"[20].

ويُحدد البناء في النظرية الخليلية بكيفية عامة على أنّه "إدراج عنصرين في بنية واحدة"[21]، كما أنّه يحدَّد عند النحاة الأوائل وفق أكثر من تحديد، غير أنّ الذي يهمنا هو التحديد الأول الذي يعتبره "ظاهرة تُحدث دائما تغييرا بنويا جزئيا للعنصر الأول (...) إذن فالمقياس الذي نقيس به هذا البناء هو هذا التغيير الذي يطال صورة العنصر الأول، فـــ "ـــ كْرِمْ" في "مُكْرِمْ" ليس له أي وجود في الوضع اللغوي (...) ولا يكون هناك بناء بهذا المعنى الأول إذا كان هذا الحذف أو هذا الإلحاق يترك العنصر الأول سليما، كما هو الحال بالنسبة لـــ "ال" التعريف، أو التنوين..."[22].

وتبعا لهذا المفهوم الخاص بالبناء[23] الذي يجعل من الكلمة كتلة واحدة، بحيث أن أيَّ حذف فيها يؤدّي إلى الإخلال بالبنية الصرفية للوحدة، بل إنّ العنصر الناتج قد لا ينتمي إطلاقا إلى العربية، فإنّه لا يمكن عدّ الأحرف التي تكون في أوّل الفعل المضارع كلمات، والشأن نفسه بالنسبة للألف في صيغة فاعل وغيرها من الأحرف التي تدخل في علاقة بناء مع غيرها لتشكيل الكلمة.

---

20 عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، (منشورات المجمع الجزائري للغة العربية، الجزائر، 2007)، ج1، ص. 222.

21Hadj-Salah, A, Linguistique arabe et linguistique générale, (Op. Cit.), T2, p. 166.

22Ibid. p. 167.

23 -يمكن الإشارة إلى أن الحاج صالح أورد نوعا من أنواع البناء، ولكنه مزجي، وهو ما يحدث ضمن النواة التركيبية، بحيث أنّ حذف العنصر اللغوي الثاني المرتبط مع الأول، يهدم الوحدة بين العنصرين فقط، ولكن لا يُغيّر من بنية العنصر الأول.

ويُستنتج من خلال ما سبق أنّ البنية الصرفية للغة العربية في مستوى الكلمة ليست ذات طبيعة إلصاقية وصلية، تحصل بضم الأحرف إلى بعضها البعض، كما أنّ تحليل الكلمة في العربية لا يمكن أن يُحدد وفق تقطيع خطي، هذا ما يؤكّده الحاج صالح مستغربا تلك النزعة التقطيعية التي ترى بأن بنية اللغات تتجسد فقط وفق محور تركيبي فقط. يقول الحاج صالح: " وما دمنا بصدد الكلام عن صيغ الكلم فإننا نعتقد أنّ النزعة التقطيعية الساذجة لا يمكنها أبدا أن تحلّل بكيفية مُرْضية وعلمية الكلم العربية، بل والكثير من الدوال في عدد من اللغات كالإنكليزية والألمانية، إذ ليست كلّ اللغات بُنيت دوالها على انضمام قطعة إلى أخرى. فهناك من الوحدات الدالة ما ليس من قبيل القطع إطلاقا. وإذا حاول البنوي أن يُسلّط تحليله التقطيعي على كلمة مثل «أصحاب» فإنّه سيتعسّف عندما يُحاول أنْ يجد أيّ قطعة فيها تدلّ على الجمع! "[24].

ويمكن اعتبار هذا النقد الأخير الذي ذكره الحاج صالح نقداً لبعض اللسانيين العرب المُحدثين المشار إليهم سلفا الذين يعتبرون الحروف الزائدة التي تكون ضمن الكلمة وحداتٍ صرفية لها دلالة صرفية مستقلة. وهو من جهة أخرى يُنبئ عن عدم وعي لديهم بالبنية الصحيحة للسان العربي في مستواه الصرفي .

24 عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، (منشورات المجمع الجزائري للغة العربية، الجزائر، 2007)، ج1، ص. 213.

4 ــ الوحدات الصرفية في الكتاب المدرسي الجزائري للغة العربية:

من خلال الاطّلاع على الكتاب المدرسي الخاص باللغة العربية الموجّه إلى تلاميذ السنة الرابعة ابتدائي، الصادر عن وزارة التربية الوطنية الجزائرية، وبالضبط في الوحدة القواعدية الخاصة بتدريس الفعل المضارع، لاحظنا أنّ المشرفين على تأليفه اعتمدوا في تحديد الفعل المضارع، وتمييزه عن غيره من الكلمات، على بعض الحروف التي تُنعت بأحرف المضارعة، والتي يعتبرها عدد غير قليل من الباحثين اللسانيين العرب المعاصرين مورفيمات تحوي دلالة صرفية مستقلة مثلما هو الأمر بالنسبة إلى لمحمد محمّد داود، وفضلا عن ذلك فقد اعتُبرت لديهم مؤشّرا حاسما في تحديد الفعل المضارع.

وقد تمّ التمثيل لذلك بالفعل "سمع" الذين يُصرَّف على عدد من الضمائر، ثمّ يُلوَّن الحرف الأول المتمثّل في الألف والنون والتاء بلون مغاير تأكيدا على أنّ معنى المضارعة اكتسبه الفعل بسبب وجود هذا الحرف في أوّل الصيغة، كما يوضحه الرسم التالي المأخوذ من كتاب اللغة العربية الخاص بهذا المستوى:

الفعل المُضارع مع ضمائر المتكلّم والمُخاطَب:

المتكلّم	المُخاطَب		
أنا أسْمعُ	أَنْتَ تَسْمَعُ	أَنْتُما تَسْمَعانِ	أَنْتُمْ تَسْمَعــونَ
نحنُ نَسمعُ	أَنْتِ تَسْمَعــينَ	أَنْتُما تَسْمَعانِ	أَنْتُنَّ تَسْمَعــنَ

(جدول تصريفي للفعل المضارع (سمع) مع ضمائر المتكلّم والمخاطب) [25]

وبالنظر إلى الحقيقة اللسانية الخاصة ببنية اللغة العربية في مستواها الصرفي، كما يراها الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح، يبدو أنّ الميزان الصرفي هو الذي أكسب الفعل دلالة المضارعة، وليست الألف أو التاء أو النون كما في الأمثلة السابقة. ومعنى ذلك أنّ دلالة المضارعة حصلت من إضافة الألف المفتوحة وإسكان السين وفتح الميم أي من مجموع التغيرات التي طرأت على الصيغة، من إضافة الحروف وقلب الحركات أو إسكانها أو تحريك السواكن. ولكن لماذا نركّز على الألف أو التاء أو النون أو الياء على الرغم أنّها لم تحمل وحدها معنى المضارعة، وإنما ساهمت فقط مع غيرها في إنتاج هذه الدلالة؟!.

25 يُنظر: كتابي في اللغة العربية، السنة الرابعة من التعليم الابتدائي، (الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، الجزائر)، ص. 67.

يمكن أن نعتبر أنّ المشرفين كانوا على وعي بذلك[26]، ويمكن تبرير هذا الإجراء بالرجوع إلى قدرات المتعلّم، إذ ربّما يرون بأنّ التلميذ في هذا المستوى يفتقر إلى حسّ تجريدي يسمح له بتمثّل مفهوم الميزان المجرّد، وعليه فإنّهم يركّزون على التغيير الظاهر فقط ألا وهو إضافة أحد هذه الحروف التي تسمّى بالزائدة (أنيت)، ويحاولون ربط معنى المضارعة به، على الرغم من أنّ هذا مناف للحقيقة اللسانية. ولو عدنا إلى النظرية الخليلية الحديثة لوجدنا بأنّ الحاج صالح لم ينظر إليها على أنّها زوائد إلصاقية، بل جعلها من مكوّنات الكلمة التي تعقد مع الوحدات الصوتية الأخرى علاقة بناء لا مجرّد علاقة وصل.

ثمّ إنّ الطفل إذا ارتبط لديه معنى المضارعة بهذه الحروف يمكن أن يعمّم الأمر، فيحكم على كلّ فعل يبدأ فيه بهذه الحروف على أنه مضارع، حتى ولو كان غير ذلك، خاصة إذا كانت العلامات الإعرابية غير ظاهرة (مقدّرة)، كما هو الشأن بالنسبة للفعل تسامى، وتتالى. وفضلا عن ذلك فنعتقد أنّ للطفل ملكة تسمح له بالقياس على الأوزان الصرفية، حتّى وإن كان عاجزا على استخراجها، فهو يُدركها ضمنيا، بحيث يدرك وزن "فاعل" مثلا، ويمكن له أن يقيس عليه ويُنتج وحدات ربّما لم يسمع بها من قبل.

---

26 وقد يكون الأمر خلاف ذلك على اعتبار أنّ بعض الباحثين اللسانيين العرب، قد أسندوا إلى بعض الزوائد معاني صرفية ومعجمية بمفردها، كما تعرّضنا إليه سابقا.

خاتمة: نستخلص من خلال هذا العرض أنّ بعض اللسانيين العرب المحدثين يكونون قد تعسّفوا لمّا أسندوا إلى بعض الحروف الزائدة بمفردها دلالات صرفية أو معجمية، فجعلوا الألف في صيغة فاعل تدل على الفاعلية، وحروف (أنيت) تؤدي معنى المضارع بمفردها، كما أن (است) تفيد معنى الطلب والصيرورة، وبصنيعهم هذا يكونون قد نظروا إلى اللغة وفق نظرة تقطيعية خطّية أساسها وجود محور واحد مجسّد لها (وهو المحور التركيبي)، بحيث لا تعدو الكلمات وفق هذه النظرة سوى مجموعة من الأصوات ضمّت إلى بعضها البعض عن طريق الإلصاق، متناسين أنّ كثيرا من الكلمات في اللغة العربية تتشكل عن طريق البناء لا الإلصاق، كما أنّهم غفلوا عن وجود محور آخر للنظام اللغوي وهو المحور التصريفي التي تكون فيه الوحدات متكافئة بنيويا، مما يسمح باستنتاج مفهوم المثال أو الميزان الصرفي.

والملاحظ أنّ هذه النظرة التقطيعية قد انتقل أثرها إلى ميدان التعليم، بحيث أصبح تعليم الوحدات الصرفية في كثير من الحالات لا يأخذ في الحسبان الميزان الصرفي، بل يُراهن فقط على الزوائد التي تدخل وتخرج على الوحدة، ولكن هذا الإجراء لو صحّ مرّة، فإنه لن يصحّ مرّات، خاصة إذا كانت الوحدات الصوتية داخل الكلمة مرتبطة فيما بينها وفق علاقة بناء، ولا يخفى على أحد ما في هذا الصنيع من نتائج سلبية على عملية التعلّم.

وفي الأخير يمكن لنا أن نشير إلى أنّ بعض اللسانيين العرب حاولوا إسقاط مفهوم المورفيم (الغربي) على العربية، دون مراعاة اختلاف الخصائص الصرفية بين اللغات فوقعوا في الخطأ. ومن هنا تبدو الدعوة ملحة إلى الاعتماد على نظرية لسانية مستنبطة من دراسات مطبّقة على العربية، وتأخذ هذا الطابع التصريفي الاشتقاقي للغة العربية في الحسبان، ليتم اعتمادها في تعليم النظام الصرفي للغة العربية، وحسبنا في ذلك اعتماد النظرية الخليلية الحديثة التي تنطلق من مجهودات العلماء العرب الأوائل الذين بصُروا ببنية اللغة العربية ونظامها الخفي. وهذا من شأنه أنْ يُساعد المهتمين بتعليميته على اتخاذ أنجع الطرائق في ذلك. كما أن محاولة استغلال أية نظرية لسانية غربية (خاصة بالبنى الصرفية للغات) ينبغي أنْ يُتوخى فيه الحذر إذا أردنا تطبيقها على اللغة العربية.

قائمة المراجع:

ـــ إبراهيم خليل، في اللسانيات ونحو النص، (دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن، 2007).

ـــ أحمد الحملاوي، شذا العرف في فنّ الصرف، (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2000)

ـــ أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، (دار الفكر، دمشق، 1999)، ط2.

ـــ أحمد مومن، مبادئ في اللسانيات، (ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2002).

ـــ الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، "كتابي في اللغة العربية"، السنة الرابعة من التعليم الابتدائي، الجزائر.

ـــ عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، (منشورات المجمع الجزائري للغة العربية، الجزائر، 2007)، ج1.

ـــ عبد الوهاب شحاتة، "أنواع المورفيم في العربية"، مجلة علوم اللغة، (دار غريب، مصر، 1998)، مج29، ع2.

ـــ محمد محمد داوود، العربية وعلم اللغة الحديث، (دار غريب للطباعة والنّشر، القاهرة، 2001).

- Hadj-Salah, A, Linguistique arabe et linguistique générale (Essai de méthodologie et d'épistémologie du 'ilm al-'arabiyya, thèse de doctorat, (Paris, 1979), T2.

- Neuveu Frank, Dictionnaire des sciences du langage, (Armand Colin, Paris, 2004).

- Dubois Jean (et al.), Dictionnaire de linguistique, (Larousse, 2002), 2éd.

تعليم النحو العربي بين غايتي: حفظ اللسان وفهم مقاصد الكلام.

الأستاذ محمد ولد دالي

جامعة المدية–الجزائر–

مقدمة :

يشكو المدرِّسون في الوطن العربي من ضعف المتعلمين في الأطوار المختلفة ، في استعمال اللغة العربية مشافهة وتحريرا . ولئن اختلفت مذاهبهم في تحديد أسباب هذا الضعف ، فإن المهتمين بهذا الشأن يشيرون بأصبع الاتهام إلى قواعد النحو العربي ، وهم على فريقين : فريق يرى الخلل في هذه القواعد في حد ذاتها ، و فريق آخر يرى أن الخلل يكمن في طرائق تدريس تلك القواعد للمتعلمين .

ومن بين الانتقادات التي وُجِّهت إلى طرائق تدريس قواعد النحو العربي تركيز المؤلفات المدرسية بعرض جدل النحاة حول المسائل النحوية الخلافية ، وتعدد الوجوه النحوية في إعراب الجملة الواحدة. وفي هذا يقول الأستاذ : سعيد الأفغاني – رحمه الله – "... وصِرنا – و نحن أحوج

ما نكون إلى الوقت في عصر الذرة والتأميم والعالمية في كل شيء – نُبدد أوقات الصغار والكبار في مناقشات طويلة لمسائل ننتهي منها إلى أن لكلٍّ وجها سائغا..."[1]. وبالإضافة إلى الاهتمام بالمسائل الخلافية ، فقد ركز مؤلفو الكتب النحوية المدرسية على جانب الصناعة اللفظية وأهملوا جانب المعنى، فأصبحت قواعد النحو جامدة مُملـــــــــه "...ومن هنا كان جنوح دراسي النحو، فأوغلوا في مسالك عقلية ، كانت تتسم بالبساطة من قبلهم ، ثم عقَّدوها، وأخرجوا هذه الدراسات من إطار الفهم اللغوي، وتناولوها على أنها صناعة لفظية ، تقوم على البراعة في تصريف الألفاظ ، واخترع القوالب ، حتى أصيبت بالجمود واعتراها الجدب ..."[2]. وقال أحد الباحثين في ابتعاد النحو عن المعنى : ".... و تحوّل النحو العربي إلى قواعد مفرَغة من المضمون بعيدة عن كشف مواضع الجمال في النص ، والوقوف على ما يشتمل عليه من دلالات ..." . [3]

ويتضح جليا من هذه الآراء أنها تلتقي في وصف مشكلة بعينها في كتب تعليم النحو العربي ، هي تعدد الوجوه النحوية ، التي تعرضها هذه الكتب حول المسألة الواحدة ، دون ربط هذه الوجوه بالمعنى ، فهي تركز على القوالب اللفظية غالبا، وعلى القواعد التي تميز الصواب من الخطأ ، وهذا ما يجعلنا نطرح التساؤل الآتي : هل نُعلم قواعد النحو العربي في الأطوار التعليمية المختلفة باعتباره أداة لمعرفة الصواب والخطأ في الكلام فقط ؟ أم نُعلمه باعتباره وسيلة لفهم معاني الكلام ومقاصده، ولاكتشاف أسرار التركيب ؟ محاولة منا لتناول هذا الموضوع ، فإن البحث سيمر عبر

ثلاثة محاور رئيسة ، يتعلق الأول منها بنظرة اللسانيين المحدثين إلى علاقة النحو بالمعنى ، و يتعلق الثاني بنظرة النحاة العرب إلى هذه العلاقة ، أما الثالث فيتناول علاقة النحو بالمعنى في النحو التعليمي المقدم في مؤسساتنا التعليمية ، لنخلص في الأخير إلى أهم النتائج .

أولا : النحو والمعنى عند اللسانين المحدثين :

يُحلل اللسانيون المحدثون اللغة إلى أربعة مستويات ، تُعرف عندهم بمستويات التحليل اللساني (Les Niveaux d'analyse linguistique) وهي : المستوى الصوتي ، والمستوى الإفرادي والمستوى التركيبي والمستوى الدلالي(4) . وهم يرون أن تحليل اللغة إلى هذه المستويات ما هو إلا ضرورة منهجية ، لتسهيل الدراسة من جهة ، ومن أجل التخصص العلمي من جهة ثانية ، لأن اللغة هي كيان متكامل الجوانب، وهذه المستويات متداخلة فيما بينها ، لكي تؤدي اللغة وظيفتها بشكل خاص وهي التبليغ. (5)

و يهمنا من بين هذه المستويات المستوى التركيبي والمستوى الدلالي، والعلاقة القائمة بينهما. وإذا نظرنا إلى مسار تطور البحث اللساني الغربي الحديث نجد أن النظر إلى هذه العلاقة يختلف من مدرسة لسانية إلى أخرى ،ابتداء بالمدرسة البنوية ، ثم التوليدية التحويلية ، ثم الوظيفية وانتهاء بالمدرسة التخاطبية (التداولية).

أ: عند البنويين :

لقد تطور الدرس اللساني الغربي في القرن العشرين على يد اللساني السويسري "فردينان دوسوسور"(1857م – 1913م) منذ أن نُشرت محاضراته بعد وفاته عام : 1916م ، و يعود هذا التطور إلى أن هذا اللساني حاول أن يضبط بصورة دقيقة موضوع البحث اللساني ومنهجه. وقد تفرعت عن المنهج البنوي الذي أسسه اتجاهات عديدة اهتم بعضها بدراسة المستوى التركيبي ، ولكنها "ركزت على دراسته دراسة شكلية أي بعيدة عن المعنى ، و اهتم عدد آخر من المدارس بدراسة المعاجم ، وركزت على الاقتران أو المصاحبة ، و لكن لم يحدث ربط بين النحو – والمقصود به التركيب – والدلالة ...". (6)

و يعود ذلك إلى أن المدرسة البنوية كانت تهتم بضبط الطرائق العلمية لدراسة المدونة اللسانية (Corpus) ، ثم العمل على تحليل تلك المدونة وتصنيفها ، وكان البنويون يرون أن المعنى شيء ميتافيزيقي ، لا يخضع لضوابط الدراسة العلمية الدقيقة ، والأصل في اللسانيات أن تتعامل مع الأحداث فقط أو الوقائع اللسانية نفسها.

ب: عند التوليديين (تشو مسكي و تلاميذه):

لم يكن أنصار هذه المدرسة بزعامة اللساني الأمريكي (إفرام نوام تشو مسكي) في بحوثهم اللسانية يهتمون بالمدونة ذاتها ، بل كان هدفهم يتمثل في" تعيين القواعد النحوية الكامنة وراء بناء الجمل." (7) أي تلك القواعد

الضمنية ، التي يستطيع مستعمل اللغة أن يولِّد بواسطتها عددا غير متناه من الجمل ، وفي هذه المرحلة الأولى من نظريته أي مرحلة البني التركيبية (1957) لم يكن تشو مسكي يهتم بجانب المعنى وعلاقته بالتراكيب النحوية . أما في المرحلة الثانية من نظريته ، أي مرحلة أوجه النظرية النحوية : (1965) ، فقد أصبحت أهداف النظرية أقرب إلى الجانب الدلالي من اللغة ، وتتمثل في :" تفسير كل العلاقات اللغوية القائمة في اللغة بين نظام الأصوات ونظام الدلالات "[8]، وهكذا يرى تشو مسكي أن"النحو " الكامل الذي يدعو إليه يتضمن ثلاثة أقسام :

ـــ القسم التركيبي :

الذي يولِّد و يشرح البنية الداخلية للعدد اللامتناهي من الجمل ، في لغة من اللغات.

ـــ القسم الفونولوجي:

الذي يشرح البنية الصوتية للجمل المركبة.

ـــ القسم الدلالي:

الذي يشرح بنية المعنى . ويحتل التركيب من هذا النحو موضع القلب، بينما تشكل الفونولوجيا والدراسة الدلالية قسمين " تأويليين "، يصفان صوت ومعنى الجمل، التي أنشأها التركيب.[9]

غير أن تلامذة تشو مسكي الذين طوروا نظريته مثل : "كاتز" و"فودور" اهتموا أكثر بجانب الدلالة وعلاقته بالتركيب ، وهم يرون أنه لا توجد حدود بين علم التركيب (Syntaxe) وبين علم الدلالة (Sémantique).[10]

ج : عند الوظيفيين :

لم يهتم أنصار هذه المدرسة بمجموعة العلاقات الرياضية المفسِّرة لطريقة عمل جهاز اللغة ، كما كان الأمرعند " تشومسكي"، بل اهتموا أكثر بوظيفة اللغة في البيئة اللغوية المحددة، أي بكيفية أداء اللغة للمعاني، فهذه المدرسة يربط أنصارها "بين النظام اللغوي وكيفية توظيف هذا النظام لأداء المعاني، ويتمثل هذا الربط في ثلاثة مظاهر :

ـــ المظهر الأول:

الخيارات المتعددة المُتاحة للمتكلم في الأبنية والتراكيب المختلفة الموجودة في لغته، فكل تركيب يؤدي وظيفة مختلفة، لأنه يُمَكِّن المتكلم من تنظيم كُتل المعلومات طبقا لظروف الكلام...

ـــ المظهر الثاني :

البنى الاجتماعية التي تمتد إليها جذور اللغة بكافة أشكالها، فلا يمكن فصل اللغة عن الثقافة : التراث و العادات و التقاليد.

ـــ المظهر الثالث:

تظافرالعناصر، بمعنى أن عناصر اللغة مجتمعة تُساهم في أداء الفكرة ، التي يريد المتكلم توصيلها ... فالوحدة الصوتية مثلا تستطيع أن تؤدي وظيفة من خلال وحدات صوتية أخرى تُشكل الكلمة ذات الدلالة المفيدة في المعجم، والكلمة بدورها تُؤدي وظيفتها ضمن نظام نحوي."[11]

وهكذا فإن مسألة الإبداع اللغوي تختلف بين التوليديين والوظيفيين، فإذا كان التوليديون يرون أن الإبداع اللغوي يكمن في " توليد جمل جديدة

" ، فإن الوظيفيين يرون أن الإبداع اللغوي يكمن في " خلق معان جديدة "، فتشومسكي يرى أن اللغة شيء نعرفه، والوظيفيون يرون أن اللغة شيء نفعله، ويفسر أحد أتباع الاتجاه الوظيفي، وهو(مايكل هاليداي) عملية اكتساب الطفل للغة الأم بأنها تنطوي على تعلم استعمالات اللغة في الظروف الاجتماعية المختلفة، والمعاني المرتبطة بهذه الاستعمالات والتراكيب. والأصوات والكلمات في هذه اللغة هي الوسائل والأطر، التي تتحقق من خلالها احتمالات المعاني.[12]

د: عند المدرسة التخاطبية (التداولية):

يربط أنصار هذه المدرسة بين التركيب ، وبين معناه ، والظروف والملابسات التي يُنجز فيها الخطاب ربطا وثيقا ، ويرون أن علم المعنى الحديث (علم الدلالة) (La sémantique) يُدرَس من خلال فرعين هما:

1 – علم الدلالة (علم المعنى) :

وهو العلم الذي يدرس المعنى الحرْفي للكلمات والجمل خارج السياق والمقام ، فهو يتتبع المعاني الوضعية.

2 – علم التخاطب (علم الاستعمال):

وهو العلم الذي يدرس معاني الجمل ضمن السياق الخاص بها، ومن هذا المنطلق فهم يميزون كذلك بين مفهومين: مفهوم الجملة، ومفهوم العبارة. فالجملة: هي سلسلة من الكلمات تنتجها قواعد اللغة ، ولها معنى

حرفي مجرد من المقام. أما العبارة: فمعناها يرتبط بالمتكلم والمخاطب، والعلاقات الاجتماعية الموجودة بينهما، أي علاقتها بمقام خاص.[13]

و هذا التفريق ناشيء أساسا عن التمييز الذي أقامه "سوسور" بين مفهومي اللسان : (La Langue) ، والكلام : (La Parole) ، إذ تنتمي الجملة إلى اللسان ، في حين تنتمي العبارة إلى الكلام.

و ينبني على هذا التفريق تفريق آخر بين مفهومي : المعنى والقصد ، وبهذا الصدد يقول أحد الباحثين : " ...ثم إن الفرق بين المعاني اللغوية ومقاصد المتكلمين (أو مُراداتهم) وثيق الصلة بالفرق بين علم الدلالة وعلم التخاطب ، فالمعاني اللغوية التي هي معان وضعية ، تُفهم من مفردات اللغة وتراكيبها وتنضوي في إطار اهتمامات علم الدلالة، لأن استنباطها لا يحتاج إلى عناصر خارج البنى اللغوية، أما مقاصد المتكلمين فلا يمكن التوصل إليها إلا بمعرفة السياقات التي قيل فيها الكلام، ومعرفة المخاطِب والمخاطَب ، و إعمال القدرات الاستنتاجية ، التي يمتلكها عند التعامل مع الكلام ...".[14]

ومن خلال تتبع المسار التطوري للبحث اللساني عند هذه المدارس المذكورة نلاحظ أن المعنى كان مُبعدا عن الدراسة اللسانية عند المدرسة البنوية ، و بدأ يعود تدريجيا عند المدرسة التوليدية في مرحلتها الثانية ، ثم أصبح مُكوِّنا هاما لهذه الدراسة مع المدرستين الوظيفية والتخاطبية ، حيث اقتنع اللسانيون في هاتين المدرستين بأن عنصر المعنى ـــ وإن أمكن الاستغناء عنه في الدراسة اللسانية عند التركيز على البنية ـــ إلا

أنه ضروري ،لأن ثمة علاقة وطيدة بين البنية والوظيفة .وفي هذا الشأن يقول "جون سيرل" في مقاله: " تشومسكي والثروة اللغوية " مايلي: "... ومن الممكن في الحالتين دراسة البنية بصورة مستقلة عن الوظيفة ، ولكن من الخطأ وغير المجدي القيام بذلك ، لاتصال الوظيفة و البنية بعلاقات وثيقة..."(15)

ثانيا : النحاة العرب والعلاقة بين النحو والمعنى:

درج الباحثون العرب المحدثون على التمييز بين مرحلتين مختلفتين في مسار تطور النحو العربي هما مرحلة النحاة المتقدمين، ومرحلة النحاة المتأخرين، وتضم المرحلة الأولى النحاة الذين عاشوا ما بين القرنين الثاني والسادس الهجريين . ونذكر منهم : الخليل بن أحمد الفراهيدي وسيبويه والمبرد... الخ أما المرحلة الثانية فتضم النحاة الذين عاشوا مع نهاية القرن السادس الهجري وما بعده من قرون، ومنهم ابن مالك، ابن هشام، ابن الأنباري والسيوطي ...الخ .وفي هذا التفريق بين المرحلتين يقول أستاذنا الدكتور عبد الرحمان الحاج صالح ما يلي: "... فاتضح لنا الفرق الكبير ،الذي يميز المنظور العلمي الدقيق لسيبويه وشيوخه وتلاميذه للغة ، وكيفية تحليلهم لها بناء على هذا المنظور ، من النزعة التعليمية للنحو التي استولت على الممارسين للنحو بعد القرنين الخامس والسادس..."(16)

والملاحظ لطريقة عرض كلٍّ من الفريقين لقواعد النحو العربي يجد أنهما مختلفان في ربط النحو بالمعنى:

ـــ النحاة المتقدمون: يربطون كل وجه من أوجه التراكيب النحوية بالمعنى الذي يدل عليه، ولا يكتفون بعرض تلك الأوجه كقوالب لفظية ، كما يبحثون عن مقاصد الكلام في كل حالة ، ومن ذلك مثلا ما يترتب من معنى في إعمال "إذن" الناصبة للفعل المضارع أو إبطال عملها. فسيبويه مثلا يربط إعمالها بمعنى الاستقبال ، ويربط إبطال عملها (إهمالها) بمعنى الحال. ويشرح ذلك بربط التركيب بالسياق الذي يستعمل فيه فيقول: "...تَقولُ إذا حُدِّثتَ بالحديث: إذنْ أظُنُّهُ فاعلاً، وإذن أَخَالُكَ كَاذِبًا، وذلك لأنك تُخْبِر أنك تلك الساعة في حال ظَنٍّ وخيَلَه، فخَرَجت من باب "أَنْ" و"كَيْ"، لأن الفعل بعدها غيرُ واقعٍ ، وليس في حالِ حَدِيثِك فعلٌ ثابتٌ ، ولمَّا لم يجز ذا في أخواتها التي تُشبه به جُعلت بمنزلة "إنما".

ولو قلت: إذن أظنُّك تريد أن تخبره أن ظنك سيقع لنصبتَ، وكذلك إذن يضربك، إذا أخبرت في حال ضرب لم ينقطع..."[17]

فسيبويه يربط إعمال إذن وإهمالها بمعنيين مختلفين ، فإذا أراد المتكلم الحال (الوقت الراهن) وليس الاستقبال(أي حدوث الفعل وقت التكلم) رفع الفعل بعدها، وجُعلت بمنزلة "إنما" ، أي أهملت وبطل عملها وخرجت من باب النواصب. أماإذا أراد الاستقبال (الزمن المستقبل)(أي حدوث الفعل مستقبلا) فينصب الفعل بعدها وتكون بمنزلة "أن" و"كي". وفضلا عن ذلك فإن النحاة المتقدمين يربطون الكلام بسياقه وبالظروف المحيطة به ، قال سيبويه في ظاهرة حذف الفعل لدلالة السياق عليه في أسلوب التحذير: "...يقول رأسَك والحائط ، وهو يحذره، كأنه قال: اتقِ

رأسَك والحائط ، وإنما حذفوا الفعل في هذه الأشياء حين ثَنَّوا، لكثرتها في كلامهم ، واستغناء بما يرون من الحال وبما جرى من الذكر..."[18] ، وهو يقصد بقوله:" بما يرون من الحال " ما يسمى عند اللسانيين المحدثين بالسياق الخارجي، أما قوله : " وبما جرى من الذكر" فيقصد به السياق الداخلي أو السياق اللغوي.

والنحاة المتقدمون ـــ فضلا عن كل ذلك ـــ يجعلون النحو أداة مهمة في فهم أسرار التركيب العربي ، وفقه أساليب اللغة العربية ، قال ابن جني وهو يوضح الفرق بين معنى الجملة الفعلية ومعنى الجملة الاسمية مايلي:"...فقولك إذا زرتني فأنا ممن يُحسن إليك ، أي فحريٌّ بي أن أُحسن إليك ، لم يكن في لفظه ذكر عادته التي يستعملها في الإحسان إلى زائره ، وجاز أن يُظن به عجز أو نفور دونه ، فإذا ذكرأن ذلك عادته وطبعه كانت النفوس إلى وقعه أسكن وبه أوثق، فاعرف هذه الخصائص في القول ولا ترينَّها تصرفا واتساعا في اللغة مجردة من الأغراض المراده منها." [19]

ـــ **النحاة المتأخرون:** قلما يربطون القواعد النحوية بمعاني الكلام وتصريفاته ، إذ يعرضون القواعد ـــ غالبا- دون شرح المعنى الذي يختص به كل وجه تركيبي ، ففي إعمال "إذن" وإبطال عملها وهي المسألة التي بينا طريقة سيبويه في عرضها سابقا ، يقول ابن عقيل شارح ألفية ابن مالك مايلي: " تقدم أن من جملة نواصب الفعل المضارع "إذن" ، ولا ينصب بها إلا بشروط. أحدها: أن يكون الفعل مستقبلا. الثاني:أن تكون

مُصدَّرة. الثالث:أن لا يُفصل بينها وبين منصوبها، وذلك نحو أن يقال: أنا آتيك فيقول:إذن أكرمَك، فلو كان الفعل بعدها حالا لا ينصب، نحو أن يقال أحبك فتقول:"إذن أظنُك صادقا"، فيجب رفع "أظن"، وكذلك يجب رفع الفعل بعدها إن لم تتصدر نحو:" زيد-إذن- يكرمُك". فإن كان المتقدم عليها حرف عطف جاز في الفعل الرفع والنصب، نحو إذن أكرمك ، وكذلك يجب رفع الفعل بعدها إن فصل بينها وبينه نحو:"إذن ـــ زيد ـــ يكرمُك" فإن فصلت بالقسم نصبت نحو:"إذن ـــ والله ـــ أكرمَك" (20) .

واضح هنا أن ابن عقيل لا يركز كثيرا على اختلاف المعنى ، باختلاف أوجه التركيب – كما يفعل سيبويه - ويكتفي بعرض جواز الرفع والنصب في الفعل الواقع بعد "إذن" ، دون أن يتحدث عن المعنى المحصل من التركيب في كل حالة.

وفضلا عن ذلك فهو لا يربط كل تركيب بالسياق الذي يقال فيه . ويقول نفس المؤلف عن جملتي الشرط والجواب (الجزاء) مايلي:"... يقتضين [أي أدوات الشرط] جملتين: إحداهما – وهي المتقدمة - تسمى شرطا، والثانية – وهي المتأخرة - تسمى جوابا أو جزاءً، ويجب في الجملة الأولى أن تكون فعلية، وأما الثانية فالأصل فيها أن تكون فعلية، ويجوز أن تكون اسمية، نحو إن جاء زيد أكرمته، وإن جاء زيد فله الفضل." (21)

والملاحظ أن ابن عقيل في هذه المسألة يركز على القاعدة ، أكثر مما يركز على دلالة التركيب في اختلاف جملة الجواب بين الاسمية والفعلية

، وقد أشار ابن جني إلى الفرق الدلالي الدقيق بين الجملتين كما عرفنا سابقا.

ثالثا: علاقة النحو بالمعنى في المؤلفات النحوية التعليمية:

إن المتأمل في كتب النحو التعليمي الموجهة إلى المتعلمين في الأطوار التعليمية المختلفة ، يجد أنها تعتمد كثيرا على مصادر نحوية لنحاة متأخرين، وعلى الرغم من أن مؤلفي تلك الكتب يصرحون في مقدمات كتبهم بأنهم ينحون منحى تعليميا تبسيطيا في تأليفها، إلا أنها ظلت تابعة لنحو النحاة المتأخرين سواء في طريقة تقديم تلك القواعد، أم في ترتيب المسائل والأبواب النحوية فيها، أم في طبيعة الشواهد والأمثلة المختارة وكيفية التعامل معها، وفي ذلك يقول الدكتور محمد حسن عبد العزيز ما يلي:"... وقد كان لهذه الشروح فضل كبير في تبويب مسائل النحو، وفي معالجتها معالجة علمية منظمة، وفي كثير منها ملاحظات جليلة تشهد بدقة أصحابها وبصرهم باللغة. غير أنها أبعدت المصادر الأولى للنحو العربي عن الدرس واكتفت بكتب المتأخرين، وهي كتب لا أصالة فيها ولا تجديد، وهكذا وصل النحو العربي – بسبب هذه الشروح – إلى طريقة عقيمة ، وقُدر له أن يعيش منذ القرن السابع الهجري في بيئة هذه الشروح والحواشي والتقريرات حتى قال السيوطي (911 هـ) : إن النحو علم نضج واحترق، و مازالت جامعاتنا حتى اليوم لا ترضى عن هذه الشروح بديلا.[22]

ولعل أهم الكتب التي تم اعتمادها في إعداد مؤلفات النحو التعليمي هي كتب ابن مالك:(ت 672 هـ)، الذي قال عنه الدكتور عبده الراجحي: "... وهو صاحب الألفية المشهورة التي ظلت مسيطرة على مناهج التدريس النحوي حتى وقتنا الحاضر... بل إن الألفية ـــ ومؤلفها أندلسي الأصل ـــ هي التي سادت تدريس النحو في المشرق كما رأيت."[23]

ومن هؤلاء الذين وضعوا مؤلفات نحوية تعليمية، واعتمدوا على ألفية ابن مالك الأستاذ عباس حسن في كتابه الشهير النحو الوافي، وهو يشير إلى ذلك في مقدمة مؤلفه فيقول: ".... وقد دعانا إلى الحرص على ترتيب "ألفية"ابن مالك وتسجيل أبوابها وأبياتها مرتبة كاملة – في الهامش- ما نعلمه في مصر وغير مصر من تمسك المعاهد والكليات الجامعية بها، وإقبال طوائف من الطلاب على تفهمها... وإنما آثرنا في ترتيب الأبواب النحوية الترتيب الذي ارتضاه "ابن مالك" ،لأنه الذي ارتضاه كثيرون ممن جاءوا بعده ، ولأنه الترتيب الشائع اليوم."[24]

إن اعتماد مؤلفي الكتب النحوية التعليمية على مؤلفات النحاة المتأخرين جعل النحو الذي يوجه إلى الناشئة في الأطوار التعليمية المختلفة أشكالا لفظية خالية من الروح غالبا، فهي تلزم الطالب بحفظ القواعد النحوية ، لكي ينطق أو يكتب الجملة بصورة صحيحة ، دون أن يعرف كيف يستعمل تلك الجملة في سياقها المناسب ، و بدون أن يفقه الفرق بين هذا الوجه و ذاك من أوجه التركيب المختلفة ، فضلا عن أنه يتخذ من

تلك القواعد وسيلة لتميز الصحيح من الخطأ في أحسن الأحوال، دون أن تكون تلك القواعد لديه أداة لاكتشاف دلالات التراكيب ومقاصدها في سياقات معنية.

ونكتفي هاهنا بمثال واحد هو مسألة حذف حرف النداء من الكلام، و كيف عالجتها بعض المؤلفات التعليمية، ثم ننظر كيف تناولها النحاة المتقدمون. قال الدكتور محمد عيد في كتابه النحو المصفى: "...ينبغي التنبه إلى أن هذا الحكم خاص بالحرف (يا) وحده دون أخواته ، فالأصل في حرف النداء أن يكون مذكورا ، و هذا ما ينطبق على كل حروف النداء غير (يا) ، أما هذا الحرف فقد ورد في استعمال اللغة محذوفا تخفيفا واختصارا لكثرة دوران استعماله على الألسنة ، ومن شواهد حذفه قول القرآن: "يوسف أعرِض عن هذا ..."[25].

فهو يعلل ظاهرة حذف حرف النداء بالتخفيف وكثرة الاستعمال، ولكننا إذا عدنا إلى سيبويه نجده يربط هذه الظاهرة بغرض من أغراض الكلام ومقصد من مقاصده، حيث قال: "... إلا أن تدعه [أي حرف النداء] استغناء بإقبال المخاطب عليك." [26] و في موضع آخر قال : "... وإن شئت حذفتهن كلهن استغناء كقولك : حارِ بن كعب ، وذلك أنه جعلهم بمنزلة من هو مقبل عليه بحضرته يخاطبه. "[27] . فحذفُ حرف النداء عند سيبويه ، ليس فقط لغرض تخفيفي اقتصادي فحسب ، بل لغرض دلالي هو قُرب المخاطب من المتكلم وحضوره أمامه ، فالمنادى البعيد ينادى بالحرف (يا) مثل : يا زيد، والقريب يُنادى بالهمزة مثل:

أزيد ، والقريب جدا يُنادى بحذف حرف النداء : زيد. ولكل وجهٍ استعمال خاص، و سياق خاص به ، وهذا ما يتبين من قول سيبويه الأول ، وقد يحذف حرف النداء لغرض (مقصد) شبيه بالغرض الأول ، وهو أن يكون المنادى بعيدا ، ولكن المتكلم يريد أن يُنَزِّله منزلة القريب لمكانته في قلبه مثلا، وهذا ما يتبين من قول سيبويه الثاني ، وكل هذا ينبغي أن يُعطى للمتعلم ، فتُقدم له الصورة التركيبية مقرونة بالقصد أو المعنى الاستعمالي منه ، لكي يتمكن استعمال تلك التراكيب في مواطنها استعمالا دقيقا أولا، ولكي يفهم أسرارها عندما تكون مستعملة في نص من النصوص ثانيا.

وهكذا نفهم أن النحو عند النحاة المتقدمين لم يكن وسيلة لمعرفة الصواب والخطأ فحسب، و لكنه – عندهم – أداة من أدوات فهم مقاصد الكلام وأغراضه ، وهو ما فهمه فهما دقيقا الإمام عبد القادر الجرجاني (ت 471 هـ) وهو يتحدث عن الذين زهدوا في تعلم النحو فقال : " ...ذلك لأنهم لا يجدون بُدا من أن يعترفوا بالحاجة إليه فيه ، إذ كان قد عُلم أن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب ،هو الذي يفتحها ، وأن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها ، وأنه المعيار الذي لا يتبين نقصان كلامه ورجحانه حتى يُعرَض عليه ، والمقياس الذي لا يُعرف صحيح من سقيم حتى يُرجح إليه ، ولا ينكر ذلك إلا من ينكر حسه ، وإلا من غالط في الحقائق نفسه ، وإذا كان الأمر كذلك فليت شعري ما عذر من تهاون به ؟ و زهد فيه؟." (28)

خاتمة : اللغة لفظ ومعنى ، شكل ومضمون ، وقد عرفت المدارس اللسانية تباينا في وجهات النظر عند دراسة اللغات ، فقد كان أنصار المدرسة البنوية يتمسكون بنظرة شكلية في تعاملهم مع اللغات ، تستبعد المعنى وتركز على اللفظ ، لأنه يمثل ـــ في نظرهم ـــ الوقائع المحسوسة، التي تخضع للمنهج العلمي الدقيق. غير أن هذه النظرة ما لبثت أن تراجعت مع المدرسة التوليدية التحويلية بزعامة (تشومسكي) في مرحلتها الثانية، حيث أصبح المكون الدلالي جزءا من النظرية التوليدية ، وخاصة عند تلاميذه ، ثم تعزز دور المعنى في التحليل اللساني ، و في فهم أسرار اللغات مع المدرستين الوظيفة والتخاطبية (التداولية).

أما بالنسبة إلى النحو العربي في نشأته الأولى فقد كان وسيلة لتصحيح الكلام ، والتميز بين الخطأ والصواب على ألسنة الناطقين، غير أنه ما لبث أن تحول إلى أداة لإدراك معاني الكلام ومقاصده عند النحاة المتقدمين خاصة ، ثم تراجع اهتمام النحاة بالمعنى ، وزاد اهتمامهم بالقوالب اللفظية مع النحاة المتأخرين. إننا بحاجة ماسة إلى الاستفادة من أعمال نحاتنا القدامى في مجال ربط النحو بالمعنى والمقاصد ، فضلا عن الاستفادة من تلك المدارس اللسانية التي تهتم بوظيفة اللغة ، واستعمالاتها المختلفة في ظروف خطابية متنوعة ، لبناء نحو تعليمي يعيد ربط اللفظ بالمعنى ، و يمكّن المتعلم من اكتشاف دلالات النص ومقاصده بواسطة القواعد النحوية ، ويعطي اللغة وظيفتها باعتبارها نظاما من الدوال و المدلولات.

الهوامش :

1 ــ سعيد الأفغاني – في أصول النحو – مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية – دمشق . د ط . 1994 – ص :238.

2 ــ عبد الفتاح لا شين – التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر – نشر دار المريخ- الرياض – المملكة العربية السعودية. د ط. 1980 ص :32.

3 ــ صابر أبو السعود – في نقد النحو العربي- دار الثقافة للنشر والتوزيع – مصر – الفجالة - دط. 1988 . ص : 29 .

4 ــ trad par Jacques Durand et Dominique John Lyons Semantique Linguistique Boulonnais libraire Larousse Paris France 1980 p.11

5 ــ Germaine Cloude et LeBlanc Raymond Introduction ala ingustique Generale 4.Syntaxe les presses de l universitie de Montreal Canada 1981 p .17

6 ــ صلاح الدين حسنين ــ الدلالة والنحو . توزيع مكتبة الآداب ط:1 ،الأردن ،دت .ص: 5 .

7 ــ جون سيرل ــ تشومسكي والثورة اللغوية . مجلة الفكرالعربي . العددان 8/9: .(الألسنية أحدث العلوم الإنسانية) السنة :1 .معهد الإنماء العربي . طرابلس . ليبيا .مارس 1979 .ص: 128 .

8 ــ نفس المرجع .ص: 128 .

9 ــ نفس المرجع .ص: 133، 134 ، 137 .

10 ــ نفس المرجع.ص: 133 ، 134 .

11 ــ أحمد يحي ــ الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة . مجلة عالم الفكر، وزارة الإعلام ، الكويت . ع:3 .المجلد: 20
أكتوبر نوفمبر ديسمبر.1989 .ص: 640 .
12 ــ نفس المرجع .ص: 640 .
13 ــ علم الدلالة (السيمانتيكية والبراجماتيكية في اللغة العربية). دارالفكرللنشر والتوزيع ، الأردن ، ط: 1 .2001 .ص:17 وما بعدها.
14 ــ محمد محمد علي يونس ــ مدخل إلى اللسانيات .دار الكتاب الجديدالمتحدة .ط:1 .بيروت .2004 .ص:19 .20 .
15 ــ جون سيرل ــ تشومسكي والثورة اللغوية ، ص: 134
16 ــ عبد الرحمان الحاج صالح ــ الجملة في كتاب سيبويه . مجلة المبرز.ع: 2 .المدرسة العليا للأساتذة .بوزريعة الجزائر.1993 .ص: 7 .
17 ــ سيبويه ــ الكتاب . تحقيق وشرح عبد السلام هارون .دار الجيل .بيروت .ج: 3 .ص:16 .
18 ــ نفس المصدر ج: 1 ،ص: 138 .
19 ــ ابن جني ــ المحتسب .تحقيق علي النجدي ناصف ، وعبد الحليم النجار، وعبد الفتاح اسماعيل شلبي، القاهرة:2004
ج: 1. ص: 146 .
20 ــ ابن عقيل ــ شرح الألفية .تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد .دار إحياء التراث العربي ،ج: 2 .ص:344 ،345 .
21 ــ نفس المصدر .ج: 2 ،ص: 370 .
22 ــ محمد حسن عبد العزيز ــ مصادر البحث اللغوي .نشر مكتبة الشباب .القاهرة .1991 .ص: 176 .

23 ــ عبده الراجحي ــ دروس في كتب النحو. دار النهضة العربية للطباعة والنشر.بيروت .1975 .ص:170 .

24 ــ عباس حسن ــ النحوالوافي . دار المعارف .مصر.ج: 1. 1979.ص: 10 /11 .

25 ــ محمد عيد ــ النحو المصفى .مكتبة الشباب .القاهرة .1973 .ص: 498 .

26 ــ سيبويه ــ الكتاب . ج: 2 . ص: 208 .

27 ــ نفس المصدر .ج: 2 .ص: 230 .

28 ــ عبد القاهر الجرجاني ــ دلائل الإعجاز في علم المعاني . نشر مكتبة الخانجي .دط. 1984 .ص: 28 .

طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية
وحدة الرغاية- الجزائر-
2012
Achevé d'imprimer sur les presses
ENAG, Réghaïa
-Algérie -
Bp 75 Z.I Réghaïa Tél (021) 84 85 98 / 84 86 11

الإيداع القانوني : 2005-1513
ISSN : 1112-65-23 ردمد